مجموعة قصصية

ناصر الوليدي

كريستيانا الفاتنة

تصميم مطبوعات ورقية والكترونية

مجموعة قصصية

كريستيانا الفاتنة

ناصر الوليدي

مؤسسة روائع للثقافة والفنون والنشر

الطبعة الأولى 2019

00201064655421

00201140178144

رقم الإيداع: 2019 / 11076

الترقيم الدولي: 978 - 977 - 6744 - 17 - 2

مراجعة لغوية :

د. عبد الرزاق الفحة

تصميم الغلاف :

أ. أمين منصور

إخراج:

أحمد نبيه الطنانى

إهداء..

إلىٰ تلك الشخصية العظيمة التي ألقت بظلال عظمتها علىٰ ذريتها فكان منها الطبيب والمهندس والطيار والجنرال والأديب والمدير والمحاسب و.....

إلىٰ من لم تمنعه أميّته عن وضع أقدام تلك السلالة علىٰ طريق العلم والمعرفة، فكان من سائري الطريق هذا الحفيد الذي يهديه اليوم هذا العمل.

إلىٰ روح الراحل جدي (سالم علي) رحمه الله.

تقديم

استطاع القاص ناصر الوليدي أن يلفت الأنظار إليه من خلال ما كان ينشره من قصص قصيرة في الصحف العدنية في السنوات الماضية، وكان في أثناء ذلك يخلق تواصلًا إبداعيًا مع القراء، حتىٰ يظن المتابع للنتاج القصصي للوليدي أنه قد آن الوقت ليجمع أشتاتها المتشظية في مجموعة قصصية واحدة، مثلما يفعل الآن، وذلك الظن بالنسبة للمتابع القارئ للصحف، أما من اتصل بشكل مباشر بناصر الوليدي، وعرفه عن قرب معرفة أكيدة، فربما يرىٰ أنه قد تأخر كثيرًا في إصدار مجموعته القصصية الأولىٰ، ولعلّ مرد ذلك أن كتابة القصة تأتي عنده في إطار جملة من الشواغل المعرفية والثقافية الأخرىٰ، ولو أنها ـ أي كتابة القصة ـ وجدت مساحة من الوقت عنده، لربما كانت صدرت منها عدة مجموعات.

علاقة الوليدي بفن القص علاقة وطيدة الجذور، تجسدت أولًا بوصفه قارئًا ومتابعًا نهمًا للتراث الإنساني في كتابة القصة، من أمثال تشيخوف وموباسان، فضلًا عن متابعته لكُتَّاب القصة

القصيرة في أدبنا العربي، وقد انعكست تلك العلاقة في لذة أحاديثه عن القصة والقصاصين، مما يمتع به أسماع الندماء ومن اتصلوا به اتصالًا مباشرًا، وحظوا بمعايشته التي لا تمل، وهو المثقف الأديب الآخذ في فنون الأدب منها بكل طرف، والضارب في أرجائها بنصيب سهم وفير. كما تجسدت أيضًا في خبرته بقواعد الكتابة القصصية ووعيه باشتراطاتها وعناصرها ووظيفتها التي لا تقف عند مجرد الإمتاع بالقص فحسب، وإنما تسعىٰ إلىٰ إنتاج الدلالات والمعاني الكامنة خلف الرغبة في القص والتصوير، والتي تتطلب قارئًا متفاعلا ليقف علىٰ مكامن الدلالة.

تلامس هذه المجموعة أوجاع الواقع ومحنة إنسان هذا الزمان، وهل هناك ما يستوجب روايته من غير الواقع المحلي للكاتب المكتنز بالألم والمعاناة والأوجاع؟!، وهل يمتلك الكاتب اليمني ترف اختيار موضوعاته من غير هذا الواقع المعاش المثخن بالأحزان وتفاصيلها القاسية؟!. إنها ليست كتابة تجنح نحو المأساوية المتخيلة، وإنما كتابة واقعية جدًا، تعيد تسريد مروي الألم من خلال خبرة الكاتب الوليدي في تخير المشاهد والمواقف والأحداث والشخصيات، وتحويلها إلىٰ مادة قصصية تدهش القارئ المعايش لأجواء القصص، وتثير عنده شجنًا مضاعفًا،

وكأنما تسربت إليها روح منفلوطية في تصويرها للمعاناة وتخيرها لنماذج الشخصيات الأكثر واقعية، شخصيات وذوات تائهة مسكونة بالحنين إلىٰ الذكريات، والرغبة في البوح، فتلجأ إلىٰ التذكر الذي يغدو فعلًا محفزًا لعملية السرد وتناسله في معظم القصص، فينفتح المروي علىٰ المزيد من مشاهد الألم ومواقف الأحزان والمعاناة. يقدمها القاص ناصر الوليدي في أسلوب سردي سلس ولغة سردية تصويرية ممتعة، لم تخل في بعض الأحيان من السخرية والمفارقة، وهما من استراتيجيات الكتابة الحديثة، فضلًا عن اعتماد السرد علىٰ حبكة الموضوع والشخصيات والأحداث التي تباغت توقعات القارئ عند النهايات.

وأستطيع القول إن القاص الوليدي ينتمي إلىٰ مدرسة في الكتابة تنطلق من رؤية جمالية بخصوصية التعبير ووظيفة الأدب الاجتماعية، ومن الوعي بتفاصيل حياة الناس ومعاناتهم، وخصوصًا في البيئة المحلية الريفية التي تستأثر بالنصيب الأوفر من قصص هذه المجموعة، ومن رؤية فلسفية تعيد صوغ الأفكار وتمريرها في أسلوب قصصي مشوق، ربما يجنح في بعض الأحيان إلىٰ اللغة الحجاجية، كما في قصتي "شارع الفتاة فردوس، ومستحيل ممكن".

لن أفسد علىٰ القارئ متعة تلقي "كريستيانا الفاتنة" وشغف انتظار هذه الفاتنة السردية، الجديرة بالقراءة والشغف والانتظار، وإن كانت هناك الكثير من القضايا التي تغري بالحديث عنها، والتي ستجد طريقها ـ إن شاء الله ـ في قراءة نقدية قائمة بذاتها.

د.عبدالحكيم باقيس
رئيس نادي السرد ـ عدن
مدير مركز البحوث والدراسات اليمنية في جامعة عدن

شجرة أم مازن

طال وقوف السائق في محطة السيارات، وبدأت احتجاجات الركاب خجلة، ثم ما زالت تتصاعد حتىٰ أوشكت أن تتحول إلىٰ مظاهرة.

ـ يا أخي هيا انطلق، ذبحنا الحر، إلىٰ كم سنظل منتظرين أم مازن هذه؟

(يصرخ شيخ كبير من آخر السيارة).

تهمس امرأة لابسة جلبابًا سابغًا زادها حرارة إلىٰ حرارة الجو:

ـ يا ولدي الجو لا يطاق، وأنت مُصِرٌّ علىٰ احتجازنا هنا.

حاول أحد الركاب أن يغادر السيارة صارخًا: من الصباح وأنت تماطلنا – الآن...الآن – ربما تكون السيارة التي تحرَّكت بعدنا قد وصلت إلىٰ عدن، ونحن محبوسون هنا ننتظر أم مازن.

التفت إليه الشيخ وقال: يا بني، الزم مكانك لا تزد الطين بِلَّة، يكفي أن ننتظر أم مازن، فإذا غادرتَ أنت سنحتاج لانتظار راكبٍ آخر.

ـ يا عم الركاب يملؤون المحطة، لو أنه يريد الانطلاق دون أم

مازن لانطلق الآن، كلما جاء راكب ورأىٰ الكرسي الأمامي فارغًا يقول له: "الكرسي محجوز" .

ـ أرجوك يا بني، انتظر عشر دقائق، إن انطلق وإلا غادرنا كلنا وتركنا (الباص) له هو وإياها.

ـ يا الله، من أجلك يا حاج ننتظر عشر دقائق.

همستُ في أذن السائق وكنت جالسًا في الكرسي الذي خلفه مباشرة:

ـ هل أنت متأكد من مجيء أم مازن؟ الوقت يمرُّ، وحرارة الشمس تزداد، وصراخ الركاب يتصاعد.

ـ نعم، ستأتي، فقد اتصلت عليَّ البارحة، ثم إن هذا موعد سفرها الشهري الذي لا تتخلف عنه منذ وقعت الحادثة، فقد اعتادت السفر معي غالبًا وحجز الكرسي الأمامي هي وحفيدها.

سحب السائق جوّاله فأخذ يتصل بها، ولكن يبدو أن جوالها كان مغلقًا أو خارج نطاق التغطية.

أصوات الباعة، وضجيج ورشة للحدادة قريبة منا، وحرارة شمس حزيران، ودخان سيجارة السائق، وصوت إذاعة السيارة، واحتجاجات الركاب، وطول انتظار أم مازن، أصابت رأسي بالصداع وجعلتني أصبُّ اللعنات علىٰ الصدفة التي قادتني إلىٰ هذه

السيارة.

وبجانب السيارة تقف سيارات أخرىٰ يطوف حولها شاب أسود اللون، واسع المنخرين، منتفخ العينين، يحمل في يده كأسًا من الشاي الأحمر ويصرخ بصوت مرتفع:

لودر.. لودر.. هيا اليوم، لودر.. لودر..

في الكرسي الذي يقع خلفي مباشرة والملاصق لنافذةٍ كُسِر زجاجُها واستعاض عنه صاحب السيارة بستارة من خشب غطىٰ بها نصف النافذة، علىٰ هذا الكرسي كان يجلس شيخٌ أظنه تجاوز الستين، يلبس إزارًا أسود يصل إلىٰ ركبتيه، وقميصًا أزرق يشبه ثياب الميكانيكيين، ويطوي حول رأسه شالًا أبيض خفيفًا متسخًا يلفُّه بحبل صغير، ويضع علىٰ فخذيه صندوقًا بلاستيكيًّا ينظر إليه ويتحسَّسُه الفينةَ بعد الأخرىٰ، كان هذا الشيخ يبدو صبورًا، أو لعله منشغلًا بما في صندوقه، وكانت تنتابه نوبات سُعالٍ تشبه صوت مضخة قديمة تجعله يخرج فمه من نصف النافذة المفتوح ليبصق علىٰ (السفلت) بعد كل نوبة سعال.

وفي الكرسي الأخير يتكئ شابٌّ سمين خشن الصوت، كان لا يكفُّ عن الاتصال بجواله، فيصدر أصواتًا مزعجة وقهقهات يملأ صداها السيارة.

وفي اللحظة التي أوشك فيها الركاب علىٰ الانفجار وصلت أم مازن تجر حفيدَها أو يجرها حفيدُها. كانت امرأة نحيفة وطويلة، محدَّبة أعلىٰ الظهر، تلبس برقعًا وعباءة سوداء قديمة. ومن تحت البرقع تبرز عينان عمشاوان علتا أنفها الأسمر، كما ظهر منها كفان أجردان سرت إليها الشقوق.

ما أن وقفت عند باب السيارة الأمامي محاولة فتحه حتىٰ أخذ الكل يرمقها بغضب، ويراقب حركتها باستعجال، حتىٰ بدت وكأنها بطلة فيلم تاريخي لحقب عصور ما قبل التاريخ.

حاولت أم مازن أن تفتح الباب فاستصعب عليها، فدفع حفيدها يدها ليكرر محاولاتها، ولكن جميع محاولاته باءت بالفشل، صرخ الشيخ بعصبية مخاطبًا السائق: يا أخي افتح الباب وخلِّصنا، أما يكفي ما نحن فيه من الفجر؟

كان السائق يدسُّ المفتاح ويديره ليشغِّل محرك السيارة دون فائدة، فأفاق علىٰ صراخ الشيخ ونزل من كرسيه، وبعدة محاولات وضربات بيده الغليظة فتح الباب لأم مازن فصعد حفيدها، ثم جلست بجانبه، ووضعت تحت أقدامهم أكياسًا و(ترمسا) للماء ولحافًا صغيرًا، وحقيبة متوسطة، فلما تأكد السائق من استوائها دفع الباب بقوة ثم أخذ يتأكد من إغلاقه فهزّه عدة مرات.

عاد إلىٰ كرسي القيادة محاولًا تشغيل السيارة إلا أنها كانت تصدر صوتًا يشبه سعال الشيخ الكبير، وعدد من الركاب يصرخون محتجين يلعنون الحظ والسائق والسيارة والنقابة، والسائق يحاول تهدئتهم ويعزو ذلك العطل إلىٰ البنزين الذي لم يعد موجودًا إلا في السوق السوداء، والذي يخلطه بعض الباعة بالمياه و الزيوت.

بعد لأيٍ تحركت السيارة فتنفَّسنا الصُّعَداء، وفتحنا النوافذ للهواء.

أخذت السيارة تغادر مدينة)مودية(وتترك المباني خلفنا، وبدأ الركاب بالاسترخاء وتبادل الحديث الهادئ، ومنهم من يستمع إلىٰ أغنيات من جواله، ومنهم من يتهامس في أحاديث الدين، والسياسة، والأسعار، والحرب، والثورة، والخدمات. وعلىٰ الكرسي الأمامي بين السائق وأم مازن وقف الحفيد علىٰ ركبتيه واتجه بوجهه نحوي، فأخذت أمازحه وأقرص أنفه، وأسأله عن اسمه وعمره ودراسته وألعابه، وهو يجيب بصوتٍ خجلٍ منخفض.

كان يصل إلىٰ سمعي حديث السائق مع أم مازن وهو يسألها عن أحوالها وعن فلان وفلان من قرابتها، مما فهمت منه أن بينهما قرابةً بعيدة ومعرفة جيدة، وكان مما سمعتُ منه قوله: ألا تكفي هذه السنوات يا أم مازن؟!

إلىٰ متىٰ ستستمر رحلاتك الشهرية هذه؟

يجب أن تنسي وتفكري في القادم وتعتني بحفيدك.

فكانت تكلمه بصوت لا أسمعه جيدًا إلا أنه مليء بالنشيج والدموع.

وفي مؤخرة السيارة عاد الشاب السمين للاتصالات المزعجة والقهقهات المدوية، وبدا أن بعض الركاب تضايقوا منه، بل إن بعضهم اشتبك معه في ملاسنة استمرت لدقائق، فتدخل بعض الركاب لفض الاشتباك بينهما.

برزت لنا جبال العرقوب السوداء، فإذا السائق يشير إلىٰ جانب الطريق الأيسر ويقول: هنا وقعت معارك طاحنة مع الحوثيين وقُتِل وأُسر وجُرح منهم الكثير، وعند تلك الشجرة يرقد ثلاثة قتلىٰ بقوا في العراء حتىٰ انتفخت أجسادهم وانتشر نتنهم، وداهمهم الدود، حتىٰ مر بجانبهم صاحب سيارة قلاب فسكب ما في حوضها عليهم فدفنهم.

فلما وصلنا إلىٰ نقطة العرقوب قال: وفي هذه النقطة فجَّر انتحاريٌّ نفسه فقتل عددًا من أفراد اللجان الشعبية، فقال الشيخ الذي خلفي وهو يتحسس صندوقه البلاستيكي: نعم، في ذلك اليوم كنت مسافرًا إلىٰ عدن، ومعي بعض البضاعة، جئنا بعد التفجير ورأينا

الدماء والشظايا، يقال إن الانتحاري صومالي.

لم يكمل الرجل حديثه حتىٰ اجتاح السيارةَ لغطٌ وأصوات وفوضىٰ عارمة، صراخ النساء والأطفال وضجيج الكبار، أخذ السائق يتلفَّت إلىٰ الخلف بخوف وقلق وكأنما شبَّ في سيارته حريق، لقد تحوَّل الركاب إلىٰ ركام من الفوضىٰ، ومن تداخل الأصوات لم نستطع فهم ما جرىٰ، وكان بعضهم يصرخ في السائق: (علىٰ جنب.. علىٰ جنب). ومنهم من يصرخ: إنها هنا تحت الكرسي، انتبهوا، انتبهوا.

انتحىٰ السائق جانبًا، وأوقف سيارته، وبسرعة قفز منها وفتح باب الركاب ليتدافعوا إلىٰ الخارج. كان الشيخ صاحب الصندوق البلاستيكي يحاول تهدئة الركاب عندما سمعهم يقولون: أفعىٰ.. أفعىٰ.. فكان يحاول الإمساك بالأفعىٰ وهو يقول: لا تخافوا هذه أفعاي تسللت من الصندوق، لقد نزعت أنيابها، ولكن لم يكن هناك من يعي ما يقول، ولم يهدأ الركاب حتىٰ رأوه ممسكًا بالأفعىٰ في يده وقد التوت علىٰ ذراعه، ثم نزل من السيارة يطَمْئِن الركاب ويفتح فم الأفعىٰ ليؤكد لهم أنها دون أنياب.

رفض الركاب أن يعودوا إلىٰ مقاعدهم إلا بطرد الرجل وصندوقه، وبعد جدل وغضب وصراخ استطاع السائق أن يقنع الركاب بالعودة إلىٰ السيارة علىٰ أن يوضع الصندوق علىٰ شبك السيارة في السطح

بعد أن يغلق بإحكام.

ما أن استوىٰ كل راكب علىٰ كرسيه لاهثًا، وبدأت السيارة في التحرك، حتىٰ بدأ التأنيب واللوم والعتاب يوجَّه لذلك الشيخ، وهو يربط عمامته البيضاء، ويلف حولها الحبل، والسعال يهزه هزا.

قال السائق في غضب: سامحك الله، أذعرت النساء والأطفال بهذه الأفعىٰ، وسببت لنا حرجًا مع الركاب، والله لو كنت أعلم أن في صندوقك هذا أفعىٰ ما سمحت لك بالسفر معي.

أخرج الرجل فمه من النافذة فبصق، ثم مسح شفتيه بظهر كفه فقال: يا بني هذا عملي، أنا أطلب رزقي في بيع الأفاعي، أصطادها في الجبال والوديان، ثم أنزع أنيابها وأبيعها في عدن.

صرخ شيخ كبير في مؤخرة السيارة: أما وجدت شيئًا غير بيع الأفاعي تطلب به رزقك؟ فالتفت إليه وقد قبض كفه وأخذ يسعل ثم قال: في هذا البلد كل شيء يباع، حتىٰ الأحذية الممزقة والأواني والعلب وبقايا الأشياء التي يرميها الناس في القمامة، في هذا البلد يبيع أصحاب محطات البنزين ما في خزاناتهم للسوق السوداء، ويبيع المسؤولون المواد الإغاثية، وتباع الأرقام العسكرية والوظائف والشهادات، وتباع المناصب والجوازات، وتباع أراضي الأوقاف وأصوات الناخبين، وتباع الآثار والأحجار النادرة، وهناك

أسواق للسلاح بكل أنواعه، بل وأسواق للزواحف والحشرات، فأي عتب عليَّ أن أبيع أفعىٰ أكفي بها نفسي وأسد حاجتي. قطع السعال علىٰ الرجل حديثه المتشنِّج، وأخذ الركاب يتبادلون الأحاديث عن بيع الأرقام العسكرية والوظائف، وأحاديث أخرىٰ عن السياسة والحرب والأسعار.

هبطنا من جبال العرقوب علىٰ مدينة شقرة فتبدّىٰ لنا البحر كأنه بساط أزرق، وهبَّت علينا رائحته المالحة، وكأنها نسمات قادمة من غابات الساحل الأفريقي. وفي هذه المدينة الصغيرة التي استعصت علىٰ التنمية والتطور نزل السائق وبعض الركاب، ونزلت أنا أيضًا لنشتري علب المياه المعدنية وبعض معلبات العصائر، ونزل صاحب الأفعىٰ يتفقد صندوقه، فصعد علىٰ ظهر السيارة وأخذ يتحسس الصندوق وينظر إليَّ وهو يبتسم، ثم غادرنا شقرة متجهين إلىٰ زنجبار.

كانت السيارة تسير مسرعة، وعن شمالنا يمتد البحر والرمال، يتغشاها سكون وصمت، وكأنها لا زالت تغطُّ في نومها، أما الركاب فقد أخلدوا إلىٰ السكون، وكأنما سرت إليهم سكينة تشبه سكون أمواج البحر، فأغمضت عيني، وأخذ صوت المحرك والهواء يخفت قليلًا قليلًا حتىٰ غبت في نوم يقطعه ارتجاج السيارة

في حفر الطريق.

أفقت قرب زنجبار علىٰ أصوات وحركة، فاستويت جالسًا، فإذا بالسائق يفتح الباب لأم مازن فتنزل هي وحفيدها، والسائق يساعدها في إنزال ما معها من متاع ويحمله مسافة تقارب مائة متر بجانب الطريق حتىٰ جلست هي وحفيدها تحت شجرة هناك، فيعود السائق مسرعًا لاهثًا معتذرًا، وقبل أن ينطلق فتحتُ الباب وجلست بجواره مكان أم مازن.

دلفنا إلىٰ مدينة زنجبار، كانت المدينة تبدو كحسناء أصابها الجذام واقتحمتها الأورام؛ البيوت مدمرة وبعض المباني تحولت إلىٰ أكوام من الحجارة والرمل، آثار الحرب في كل مكان، لا تكاد تجد مبنىً حكوميًّا أو بيتًا إلا وقد أخذ نصيبه من صواريخ الطائرات أو قذائف المدافع، الحطام في كل اتجاه، وبقايا معدات قتالية تتفرق هنا وهناك، والناس يسيرون بين تلك الأنقاض وكأنهم يتحدّون المأساة ويتشبثون بالحياة.

ترىٰ العربات التي تجرها الجمال والحمير وبعض السيارات تذهب وتجيء في شوارع المدينة المنكوبة، لا زالت الكثير من الشعارات التي تركها مقاتلو القاعدة وشعارات أخرىٰ للحوثيين تتوزع علىٰ بعض الجدران.

تركنا زنجبار وراءنا كشجرة يابسة تستمطر السحاب وتنتظر الأمل.

أخرج السائق علبة السيجارة، ووضع بين شفتيه لفافة منها، ثم أشعل فيها النار وأخذ نفسًا عميقًا ثم مدَّ يده إلىٰ مسجل السيارة، وبدأت الموسيقىٰ تملأ المكان، ثم التفت إليّ مبتسمًا وقال: لقد راعينا أحزان أم مازن فلم نسمع المسجل حتىٰ نزلت.

قلت: ولماذا هي حزينة أم مازن؟ وكيف تركتها وطفلها في ذلك المكان؟

أخذ نفسًا آخر من سيجارته، ثم زفر الدخان من منخريه، ومد يده إلىٰ المسجل وأنقص الصوت فقال:

مسكينة هذه المرأة، توالت عليها الكوارث منذ شبابها، لا تغادرها نكبة حتىٰ تحل بها أخرىٰ، مات أبوها قبل زواجها بأقل من سنة نتيجة لإهمال طبي، ثم قتل زوجها في أحداث ١٣ يناير، لم يكن عسكريًا وليس له في الحرب ناقة ولا جمل، كان يعمل في سيارة خاصة ففُقد هو وسيارته في أيام الحرب الأولىٰ، ولم يعثر له بعدها علىٰ أثر.

عاشت أرملة ليس لها إلا ولدها مازن، كان مازن خيط الأمل الوحيد في حياتها، أفنت شبابها لأجله، حرصت علىٰ تعليمه

حتىٰ تخرج مهندسًا من كلية النفط، كانت تعقد عليه آمالها الكبيرة فزوّجته وهو مازال طالبًا في السنة الأخيرة من الجامعة، فرزق هذا الحفيد الذي صحبته معها. جاءت الحرب الأخيرة واستحر القتل في كل اتجاه، كنا نحن أصحاب السيارات نمر في طريقنا إلىٰ عدن بعدة كيانات، فبعد أن نغادر حدود سيطرة اللجان الشعبية نصل إلىٰ حدود سيطرة أنصار الشريعة، هذا قبل اقتحام الحوثيين للمحافظة، ثم نغادر دولة القاعدة إلىٰ حدود سيطرة السلطة المركزية.

في بداية الأمر توقفنا عن المخاطرة والسفر، فلما طالت الحرب وجدنا أنه لا بد أن نتعايش معها وننتزع أرزاقنا من بين براثنها، واستمرت حركة الناس تحت قصف الطائرات وقذائف الكاتيوشا والمدفعية. وفي هذا المكان الذي نزلت فيه أم مازن كانت إحدىٰ الطائرات تلقي حممها فأصابت سيارة كان يستقلها عدد من الركاب فيهم مازن، فمزقت أشلاءهم جميعًا، ودفنت بقايا أشلاء مازن هناك تحت تلك الشجرة.

كان من أصعب الأشياء إخبار أمه بمقتله، فالكل كان يتوقع أنها قد بلغت من إنهاك الكوارث ما يضعفها عن الاحتمال، ولكن لا بد مما ليس منه بد. وصل الخبر إلىٰ أم مازن فدخلت في غيبوبة، ثم تبين أنها أصيبت بجلطة أدخلت بعدها غرفة الإنعاش، حتىٰ

أوشكت علىٰ الموت.

خرجت من المستشفىٰ بعد أشهر وقد أصيبت بحالة اكتئاب جعلتها تراجع عددًا من الأطباء النفسانيين، فتحولت حياتها إلىٰ ضباب كثيفة من البكاء والأحزان والأمراض والعقاقير، وقيل إنها أصيبت بلوثة في عقلها، لقد فقدت بمقتل ولدها الشريان الذي يمدها بالحياة.

تخرّج ولدها من الجامعة، وتوظف مع بعض الشركات الأجنبية، وبدأت الحياة تبتسم لأم مازن حتىٰ جاءت الحرب وأرسلت طائرتها فمزقت أشلاء الأمل مع أشلاء مازن، وما تزال هذه المسكينة تزور قبر ولدها نهاية كل شهر حين تتسلم راتب المرحوم زوجها، فتجلس تحت هذه الشجرة تبكي وتنتحب حتىٰ قبيل غروب الشمس، فتقف في الطريق لتؤوب إلىٰ بيتها مع أول سيارة عائدة.

أكمل السائق حديثه وأخذ ينفث سيجارته، ثم رفع صوت المسجل، أما أنا فقد ألقيت رأسي علىٰ الكرسي وصورة أم مازن وحفيدها تتراءىٰ أمام عيني.

آمـال

أخذ الدكتور عبد العليم الملفَّ من يد الموظفة آمال، واتكأ علىٰ كرسيه مستغربًا من النجاحات التي حققتها في مدة وجيزة.

منذ سنوات وهو يدير هذه المؤسسة الخيرية المختصة بدعم الأيتام ورعايتهم، وهو يعرف جيدًا أن مجال التسويق وإقناع المتبرعين من التجار ورجال الأعمال بأهمية رعاية المؤسسة هي أهم المجالات في المؤسسة، ولكنه لم يجد المتدرِّب المناسب للقيام بهذه المهمة، ولقد فكر مرارًا في تصفية أعمال المؤسسة وإغلاقها، أو تسليمها لوزارة الشؤون الاجتماعية.

شعر بارتياح عميق وهو يقلِّب الأوراق التي يحويها الملف.

"يا لها من رائعة"، هكذا همس الدكتور عبد العليم، لقد استطاعت في أقل من شهر واحد أن تقنع عددًا كبيرًا من المتبرعين بالتزامات شهرية وموسمية للمؤسسة.

كانت (آمال نبيل) تفرك كفَّيها حينًا وتعبث بجوالها حينًا آخر، وهي جالسة قبالة الدكتور عبد العليم.

ـ آمال، هل أنتِ متأكدة من صحة هذه الالتزامات والمواعيد؟

ـ نعم يا دكتور.

ـ عجيب!!

ـ وما هو العجيب؟

ـ العدد كبير والمبالغ ضخمة، مقارنة بالسنوات الماضية.

ـ لا أظن يا دكتور، المؤسسة تحتاج المزيد، لا بد أن نوفر الرعاية الكاملة لليتيم بحيث يشعر أنه لم يفقد والديه أو أحدهما، فليست وظيفتنا توفير الطعام والشراب والكساء والدواء لليتم فحسب، بل لابد من تأهيله نفسيًا وعاطفيًا وعلميًا، وإكسابه الخبرات المختلفة التي تساعده علىٰ مواجهة الحياة، وتسهم في الدفع به إلىٰ النجاح.

انتابته قشعريرة وهو يصغي إلىٰ كلماتها التي تنبض بالصدق والإصرار ثم قال:

ـ صدقتِ يا آمال، نريد أن نصنع لليتيم مناخًا عائليًا يُنسيه اليُتمَ والألم ويُشعِره بالأمان والطُّمأنينة.

ـ ولهذا يا دكتور أبشِّرُك أن هناك أضعافَ هؤلاء المتبرعين وعدوني بدعم المؤسسة في وقتٍ قريب، وهناك آخرون جعلتُ لهم مواعيد، وأظن أن مساعيَّ لن تخيب بإذن الله.

ـ مدهش.. مدهش.. هذا لغز يا آمال!! لغز عجيب، كيف

استطعت أن تقنعي هؤلاء المتبرعين؟!

لقد حاولنا مرارًا وتكرارًا فلم نفلح إلا مع القليل، ولم يدعمنا إلا بالقليل، والغريب في الأمر أنها ليست لك خبرة مسبقة في العمل في هذا المجال، وهذه هي المرة الأولىٰ التي تعملين في تسويق الأعمال الخيرية.

استوت آمال جالسة علىٰ كرسيها ثم التفتت إلىٰ المدير قائلة:

"ليس هناك لغز ولا غرابة، بمجرد أن أكلم المتبرع وأعرض عليه أهمية عمله وحاجة اليتيم، أجده مباشرة يستجيب لطلبي.

ـ لكن ما فعلته أنتِ فعله قبلك كثير من الموظفين والموظفات، فلم يحققوا من النجاح عُشر ما حققتِ، أقنعيني بسببٍ وجيهٍ، ما الفرق بينك وبين من سبقك؟

ـ هناك فرقٌ واحد يا دكتور، وكان ينبغي أن تدركه أنت بنفسك.

اختنقت الكلمات في فمها، واختلطت عبراتها بعباراتها، شعر عبد العليم بالارتباك وأخذ يعتذر إليها..

ـ أنا آسف يا آمال هل أساءت كلماتي إليك؟ أرجو أن لا تفهميني خطأ.

ـ دكتور عبدالعليم...

أنا يتيمة...

أجهشت بالبكاء.

فهتف قائلًا: سامحيني يا آمال أنا أعتذر.

ـ أنا يتيمة يا دكتور... يتيمة، ذقت مرارة اليتم وعذابه، تقلَّبت علىٰ جمراته، وتجرعت آلامه. رحل أبي وأنا في السادسة من عمري، وخلّف لأمي الدموع والأحزان، كان كهفَنا الذي نأوي إليه فانهار وتركنا في العراء، لقد كانت فجيعتنا وفجيعة أمي الشابة بموته كبيرة.

كنا نتقلب في بحبوحة من العيش، ترفرف السعادة علينا بأجنحتها، وتغمرنا الحياة بأفراحها، كانت حياتنا كلها أعياد، فاستحالت إلىٰ مأتمٍ طويل، لم نكد نفيق منه إلا بعد سنواتٍ طوال. كنت أنتظر أبي عند الباب ساعة عودته من عمله فيستقبلني بحضنه الدافئ، ويحملني علىٰ صدره بين ذراعيه، عادةً أدمنت عليها، ففقدت ذلك الحضن وتلك الذراعين وذلك الصدر الحنون.

لم تعد أمي تغنِّي بأغنياتها الجميلة، لم أعد أسمع صوتها العذب الذي كان يُشَبِّهه أبي بصوت البلبل الصداح، استعاضت عنها بالزفرات والأَنَّات في سواد الليالي، ليالي الجوع والبرد والحرمان، لم تعد أمي تسقي زهورها مع شروق الشمس بعد أن تشيّع أبي إلىٰ الباب، بل ذبلت تلك الزهور فرميناها في أكياس القمامة، أهملت

بطَّاتها التي كانت تربيها في حوش منزلنا، فجاعت البطَّات فلا ندري إلىٰ أين هاجرت تبحث عن طعامها.

لقد تعودتُ النوم في حضن أبي وعلىٰ فراشه، فكنت بعد موته أصرخ محتجة: لن أنام إلا علىٰ فراش أبي وفي حضنه، فكانوا يقولون لي: أبوك ذهب إلىٰ الجنة، فأقول: دعوني أذهب مع أبي إلىٰ الجنة لأنام هناك..

لقد أصبحنا يا دكتور نلبس المرقَّع، ونفترش ما تركه لنا أبي من الفرش، حتىٰ تمزقت أطرافها.

حين لا تجد لنا أمي من الثياب ما تكسونا به في العيد فإنها تلهِّينا وتأخذنا إلىٰ خارج البلدة في ظلمة الفجر؛ حتىٰ لا نرىٰ ثياب الأطفال وألعابهم. أما هي فإنها تقضي يومها باكية، تحاول أن تخفي عنا دموعها.

ينتابها المرض وتنهشها الأسقام فلا تذهب إلىٰ الطبيب، بل تتداوىٰ بالصبْر والدعاء. نحل جسمها، وضعفت قوتها، وذوىٰ بهاؤها وجمالها، وللأسف لم يلتفت إلينا أحد، وأبينا أن نمد أيدينا إلىٰ أي أحد. بكتْ أمي علىٰ أبي حتىٰ ضعف بصرها ووهنت عزيمتها، والله لقد ضاقت بالحياة، ولولا أبناؤها لتمنت أن تموت، لكنها تشعر أنها تعيش لأجلنا، كنا عزاءها في الحياة، وجنتها في

الدنيا.

كم مرة أقوم في الليالي الحالكة، فأسمع نحيبها وهي تخاطب أبي الراحل وتشكو إليه حالنا وتقول له: لماذا تركتنا يا (نبيل) لقد كُسر جناحنا، وهُدَّم قصرنا، وتبددت آمالنا، واسودَّ فجرنا، وتاهت أحلامنا، فيطير النوم من عينيَّ الصغيرتين، فأحتضن أمي وأرتمي علىٰ صدرها باكية فتلصقني في حضنها لتمتزج دموعنا حتىٰ يغلبنا النوم..

يا دكتور، تأتي المدارس فيفرح بها الأطفال لأنهم يلبسون الجديد، ويشترون الجديد من الحقائب والأقلام والأدوات المدرسية، أما أنا وأخواتي فكانت أمنا تخيط لنا ثياب وحقائب السنوات السابقة، وتجمع لنا ما تبقىٰ من أقلامنا وأدواتنا المستخدمة، فبأي عام دراسي جديد نفرح، كان هزال أجسامنا وسوء تغذيتنا يلفت نظر معلماتنا، فيرسلن إلىٰ أمي رسائل تدعوها إلىٰ العناية بصحتنا، فتعيدها إليهن مبللة بدموعها...

يا دكتور عبد الـ...

ـ أرجوكِ توقفي يا آمال، لقد قطّعتِ قلبي واستنزفتِ دمعي... الآن فهمت، نعم لقد فهمت، هناك فرق بين النائحة الثكلىٰ والنائحة المستأجرة.

ـ يا دكتور، حينما أخاطب رجال الأعمال استحضر يتمي وحاجتي وذكريات ألمي، فتخترق حرارة عواطفي قلوبهم، فيبادرون للاستجابة لمطالبي.

صرخ الدكتور عبدالعليم في سكرتيره ليجمع له جميع الموظفين، وفي لحظات يسيرة تجمع الموظفون حول مكتب المدير فخاطبهم: أيها الزملاء لقد قررت اليوم أن أستقيل من عملي كمدير لهذه المؤسسة، وأسلم كرسي الإدارة لمن هو أجدر بها مني، إنها الأستاذة (آمال نبيل)، وأرجو أن تؤيدوا مقترحي هذا لنتخذ الإجراءات اللازمة لهذا التغيير.

نهضت آمال من كرسيها وغادرت المكان باكية.

شارع الفتاة فردوس

ـ أتدري يا عز الدين كم كنت أنتظر هذه الليلة؟

لم يكن ذلك من أجل جمال هذا الليل ونسماته ولا من أجل أنوار القمر في ليلة بدره، ولا الجلوس علىٰ رمل هذا الشاطئ الجميل، وسماع أنغام البحر الهادئة وهي تتردد علىٰ أطراف الرمال، كأنها أنامل الجارية الحسناء علىٰ أوتار العود.

ـ بالطبع أكيد، يا صديقي محمود، فأنت لست شاعرًا، ولا متذوقٌ للأدب مثلي، قلوبكم قاسية يا طلاب الأقسام العلمية، جُلَّ أوقاتكم تقضونها في المعادلات والمقادير، وتردُّد الموجات المغناطيسية علىٰ قلب المصباح و...

ـ هههه، توقف يا عز الدين توقف، اسمع عباراتك العلمية (وتردد الموجات المغناطيسية علىٰ قلب المصباح). يا لك من رقيق تريد أن تحول حركة الموجات المغناطيسية إلىٰ موجات عاطفية، تتسلل خِلسة إلىٰ قلب المصباح الولهان، توقّف قبل أن ينهمر دمعك علىٰ المصباح المسكين الذي يرقب النجم الساري، ويناجي الكوكب

السيار، الذي سيمر علىٰ حبيبته السهرانة في أقصىٰ البادية بين الخيام، تخاطب نجومه وكواكبه التي طافت بحبيبها.

ـ لكن بالله قل لي من أين لك مثل هذه العبارات أيها الطالب الفيزيائي؟، لقد والله سحرتني بخيالك، وكأني أنظر إلىٰ الحبيب هناك، يحدِّق في النجم الذي نَعِم بالنظر إلىٰ حبيبته، ليرسل إليه نظرة كأنها إرسال معكوس لصورة وجه الحبيبة والذي سيرسل أمواجه المغناطيسية إليه.

ـ هه هه هه، توقف يا عز الدين هذا تخصصي، الموجات المغناطيسية والذبذبات الغرامية، لا تتدخل في علم الفيزياء، انعكاس الصورة والضوء، دعك في فنك وتخصصك، البكاء علىٰ الحبيبة، ومنادمة الأطلال، ومناجاة الليل، والبحث عن الموقد وبقايا الرماد، وأشواك الحظائر وبعر الآرام وآثار الإبل، وانهمار الدمع علىٰ الحصىٰ، والوقوف قبل غروب الشمس لمراقبة القافلة وهي تغادر الديار، بحثًا عن المراعي والغدران، وهودج الحبيبة يتهادىٰ علىٰ ظهر الناقة المحظوظة، والقافلة تختفي تدريجيًا حتىٰ يبتلعها البين والظلام.

ـ الله.. الله.. الله. والله ما أنت فيزيائي يا محمود، أنت أديب متذوق، ضيّعت نفسك في الفيزياء ومشكلاتها، أي لذة للحياة مع

نيوتن وأمبير واينشتاين والصوت والضوء..؟؟

ـ أولًا، يا عز الدين تخيل نيوتن تحت شجرة التفاح الجميلة وهو قاعد في ظلها الظليل، وأمبير وهو يرسل التيار إلىٰ قلب المصباح الميت فتشعشع أنواره، كما يسري الحب في القلب الغافل فيضئ جوانبه وينير خلاياه، واينشتاين وهو يثبت للعالم إن الحياة قائمة علىٰ النسبية وليست هي معادلات رياضية صماء، أليس هذا من صميم الروح ومن فيض القلوب؟؟

ـ لله أبوك يا محمود، والله إنك ابن الأدب والشعر، ابن بادية السماوة ورمال نجد، ابن الدَّخول فَحَومَل، وبَرْقَة ثَهْمَد، وبَعْلبَك وقاصِرينا، كأني بك تزور الدِّمَن ومِنىٰ، ومدافع الرَّيان التي عُـرِّي رسمُها، وتُعرِّج علىٰ حَوْمانة الدَّرَّاج والمُتَثَلِّم.

ـ دعني أكمل وأقول ثانيًا يا عز الدين.

ـ وهل هناك (ثانيًا) يا محمود، لماذا لم تخبرني بملكاتك الأدبية وروحك العطرة في أثناء دراستنا الجامعية، لتأتيني اليوم بهذه العبارات التي تنساب كأنها...

ـ كأنها الماء الذي يجري في الأوراق، والنعاس الذي يدب في...

ـ ياه يا محمود، الليلة اكتشفتك، لكن قل لي وما هو (ثانيًا)؟

ـ ثانيًا يا عز الدين، الأدب حرفة المفاليس، فحديث الأرواح،

وهمس السواقي، وأنفاس الورود، لا يُؤَكِّل عيشًا كما يقولون، نحن في زمن التنازع علىٰ البقاء، والتدافع علىٰ الحياة، إذا لم يكن لديك ما يكفيك قذفَتْ بك الحياة إلىٰ جانب الطريق، ونبذتك نبذ الحذاء المرقَّعِ، كما يقول شيخكم الحريري، واحتقَرَك الأهل والأقارب، فضلًا عن الأبعدين، وعلينا أن نكون واقعيين. لقد كان أبي أديبًا كبيرًا يعشق الجمال، ويهزه القول البليغ، ويبكيه نوح الحمام، لكنه تركنا فقراء معدمين، لولا لطف الله بنا لأصبحنا عالة نتكفف الآخرين.

ـ لكن يا محمود ألم تـ...

ـ بدون لكن، يا عز الدين هذا الحديث يجرنا إلىٰ الموضوع الذي أردت أن أسألك عنه، وأن نجلس بعيدًا عن حركة الناس، علىٰ رمال هذا الشاطئ في هذه الليلة المقمرة، أريد أن تحدثنني بتفاصيل التفاصيل، منذ تعرفتُ عليك في الجامعة، وسمعت بعض الزملاء يذكرون هذا الموضوع، وكأنهم يظنون أني أعرف تفاصيله، بحكم التصاقي بك في أوقات الدراسة، وخارجها أحيانًا، ولكن صدقني أني ما تجرأت علىٰ سؤالك، حياءً منك وحفظًا للود فيما بيننا.

ـ الله المستعان يا محمود، إلىٰ هذا الحد؟!، يا أخي ليس بيني وبينك أسرار، وما كان ينبغي أن تتردد كل هذه المدة عن أي أمر تريد أن تقوله.

ـ المهم يا عز الدين الليلة أريدك أن تسترسل لي عن موضوع أبيك الشيخ الزاهد، وما يقول الناس عنه وعن خاتمته، وعن شارع (فردوس).

ـ قد شككت أنك تقصد هذا الموضوع، ولو سألتني قبلًا لأخبرتك، ولم تكن ثمة حاجة لهذا التردد، لكن دعني قبل الحديث الطويل، أصبّ لنا كأسين من الشاي الأحمر، الذي سيساعدنا علىٰ التركيز، وينعش أعيننا قبل أن يغزوها النعاس.

هيه، يا صديقي محمود القصة لا تبدأ من نهايتها، القصة تبدأ من جدي رحمه الله الشيخ الصالح المعروف عند الناس، الشيخ (محي الدين الرازقي)، كان جدي هذا كما تعرف أنت ويعرف الناس في مدينتنا هذه، كان رجلًا صالحًا عابدًا محسنًا، كثير العبادة والإحسان، وهو من بنىٰ كثيرًا من هذه المساجد، وكان شيخًا لعدد كثير من المريدين الذين تربُّوا علىٰ يديه، لكن أبرز طلابه وأفضلهم وأنجبهم علىٰ الإطلاق هو ولده (مجيب) الذي هو أبي صاحب القصة؛ ذلك أن أباه اعتنىٰ به عناية فائقة، كان يريده أن يخلفه علىٰ المدرسة والمسجد وكرسي التعليم، ومن هنا نشأت القضية التي تسأل عنها.

كان جدي وليًا صالحًا حازمًا، وكان شديدًا علىٰ ولده، ومن

اللحظة التي تحركت فيها قدما أبي، أخذه أبوه إلىٰ المدرسة والمسجد ومحيطه الديني، فنشأ أبي مثل أبيه إن لم يكن أفضل، لا يعرف الدنيا، ولا يفهم تقلباتها ولا كثيرًا من أحوال أهلها، قضىٰ حياته في العلم والذكر والزهد، بين الأوراد والأخبار والطلاب والشيوخ. ولا يفوتني أن ألفت نظرك إلىٰ أن أبي كان وسيمًا جميلًا أبيض اللون مائلًا إلىٰ الحمرة، حسن القوام، فجمع الله له الجمالين، جمال الظاهر وجمال الباطن، ولم يشغله أبوه بالدنيا فلديه من التجارة ما يكفيه وأولاده عن مزاولة أي عمل، أو طلب أي وظيفة، ولم يكن لأبي شغل إلا التفرغ الكامل لأعمال الذكر والدرس والقراءة، ومساعدة أبيه في معالجة بعض قضايا الناس التي ترد إليه، لكن أبي كان خلاف أبيه، كان أبي رقيقًا عاطفيًا غزير الدمعة كثير التأوه، تبكيه النغمة، ويهزه النسيم، ويسكره الجمال، رغم قسوة تربية جدي له، رحمهما الله.

كان لا يرفع رأسه، إما أن يقرأ القرآن الكريم، أو كتاب إحياء علوم الدين، أو ديوان سلطان العاشقين أو غيره من الكتب.

ـ عز الدين.. أرجو أن تتناول الشاي فلعله قد برد، لكن قبل أن تكمل، خذ المنديل وجفف دموعك، وخذ نفسًا عميقًا، قبل أن ننغمس جميعًا في نواح يُبكي الحيتانَ في البحر.

ـ المهم يا محمود، لم يسمح أبي يومًا لقلبه الرقيق أن يعشق، وقد حاوَلَتْ بعض غواني المدينة أن تتسلل إلىٰ قلبه، لكنها وجدت السور مرتفعًا، والحراس أيقاظًا، والباب مغلقًا بأقفال أصلب من الحديد. تزوج أمي (دنيا)، كان زواجًا مفاجئًا، اختارها له أبوه لأنها ابنة أحد مريديه، وكانت تقوم ببعض الأعمال في مركزهم الديني، تزوجها أبي، ورضي بها ليحصِّن بها فرجه، ويُرزَق منها الذرية الصالحة، التي تدعو له بعد موته، هكذا لا غير، كانت أمي بارعة الجمال محبة مطيعة، أحبت أبي حبًا اخترق مخ عظامها.

هل كان أبي يحبها؟

لا أدري، ولكنه كان لا يرد لها طلبًا، عشنا معه في ألذ عيش، يحنو علينا بقلبه العطوف، يؤوينا إلىٰ حضنه الدافئ، أما المال والاحتياجات فلا تسل، كان يضع المال بين أيدينا ويقول خذوا ما تريدون منه ودعوا لي القليل، كان صبورًا قنوعًا، خاشعًا، يصوم أكثر الأوقات، ولا يفطر إلا علىٰ اليسير من الطعام، كان يقضي أغلب أوقاته في مسجده ومدرسته، خاصة بعد موت جدي، وتبوؤه مكانه، وكان الناس يحبونه ويعظِّمونه أكثر من أبيه. كان جدي حازمًا قاسيًا أحيانًا، بينما كان أبي حنونًا عطوفًا رقيق القلب متدفق الدمع. كنت أراه يقرأ ديوان سلطان العاشقين والدمع يجري علىٰ

خديه، وكان يحب الأدب ويقرأ فيه كثيرًا، وكان يقول لي: يا بني، كثير من الفقهاء كانوا أدباء. وهو من حبب إليَّ الأدب والتخصص فيه لدراستي الجامعية.

ـ لكن ما علاقة هذا كله بخاتمة أبيك؟

ـ لا تستعجل علي يا محمود، سيساق الحديث إليك، ولكن صبرك.

ـ آسف، يالله تكلم لن أقاطعك مرة أخرىٰ.

ـ هكذا كان أبي وهكذا كنا وهكذا كان وضعنا، حتىٰ ظهرت علىٰ مسرح قلبه الفتاة (فردوس) والتي سمىٰ الناس الشارع باسمها.

ـ نعم أعرفه ولولا شهرة هذا الشارع لنسي الناس قصة أبيك.

ـ كيف هبَّت هذه النسمة علىٰ قلب أبي؟ أنا لا أدري وأمي لا تدري، وإخواني لا يدرون، تفرق إخواني قبل موته رحمه الله وبقيت أنا ابنه الأصغر بجانبه، وعايشت أحداث هذه القصة.

أحبَّ أبي الفتاة (فردوس) حبًا ملك عليه كيانه، وأفقده توازنه، كأنَّ حبها ورد علىٰ قلبه الظامئ العطشان في لحظة موته، فدبَّت فيه الحياة وانتعشت روحه المنهكة، اعتزل الناس وبقي لا يخرج إليهم إلا فيما ليس منه بد، نسي أمي (دنيا) وأولادها، لكنه لم يكن يشعرنا إلا أني فهمت ذلك أنا فيما بعد. كانت (فردوس) بالنسبة إليه بلسم

الجروح، وكهرباء الروح، ولذة الحياة، وبهجة النفس. جاءت إلىٰ قلبه المحروم كالماء الزلال، فانهارت قواه أمام سحر بهائها، فاستظل في جنتها الظليلة، وورد الرحيق من بسمتها العطرة، لكن حاشاه أن يترك أمر ربه أو يتجاوز نهيه، ما هو إلا حديث الأرواح وخيوط الأمل، كان باستطاعة أبي أن يتزوجها ولكن كيف السبيل؟ عطفه علىٰ أمي، وحنانه علينا، ومقامه ومكانته التي ستهتز حين يتفرق شمله ويصبح حديث الناس، اعتصم بالصبر، فكان يخرج يمشي علىٰ قدميه إلىٰ أطراف المدينة فيناجي البحر ويخاطب الموج، ويعبث بذرات الرمال، سكر بحبها حتىٰ الثمالة، لكن ليس له من سبيل إلا الانتظار، طال عليه الانتظار، فاعتزل في غرفته يقلب حبات سبحته، ويقرأ في كتبه، ويذرف الدمع علىٰ حبيبته.

بلغ أبي الرابعة والستين من عمره وهو منتظر، وفتاته فردوس تنتظر، ماتت أمي وهي لا تعلم بالسيول التي جرفت سويداء قلب حبيبها، ولم يكن أحد يعلم إلا أنا وبعض الخواص. عجز أبي عن الانتظار فأصبحت فردوس هي قطب المغناطيس الذي يجره إليه، خرج صبيحة ذلك اليوم وكأنه نشط من عقال، وامتلأ قوة وحيوية فهرع نحو بيتها، أخذ يتنقل من شارع إلىٰ شارع ومن حارة إلىٰ حارة، حتىٰ وقف أمام دارها مشدوها ممغنطًا، كأنه يقف أمام قصر سحري يشبه قصور

الأساطير في حكايات السحر والخرافة، وأمام الباب وفي الشارع أخذ ينادي حبيبته فردوس، فتحت الباب ووقفت فيه، نظر إلىٰ وجهها الجميل فوجد ماء النعيم يجري فيه أنهارًا، تأمل في أنوارها الساطعة كانت شامخة جميلة بهية الطلعة، تسمَّرت بين عضادتي الباب، لم يملك نفسه، فهذا يوم اللقاء بعد شوق السنين، فقد القدرة علىٰ القيام، ارتعشت رجلاه اهتزت أوصاله، ارتعدت فرائصه، انكب يقبل قدميها ويمرغ وجهه علىٰ حذائها ليستنشق عبيرها.

أما هي فقد جمدت مكانها كأنها تمثال من الحديد أو جبل من جبال الهملايا، لحظ الناس هذا المشهد الغريب، هرعوا إليهم، وجدوا الشيخ جامدًا لا حراك له، لقد فارق الحياة تحت قدميها وبين أحذيتها، قلبوه يمنة ويسرة، لقد ذهب إلىٰ الدار الآخرة.

لم يصدق الناس ما رأوا، منهم من رماه بالحجارة ومنهم من أشفق عليه، حملوه من تحت قدميها، وهي في مكانها ثابتة كأنها لا تشعر بمن حولها، فكثر اللغط، وارتفعت الأصوات، وتعالىٰ الضجيج.

مر بهم مجذوب صوفي عاشق، قال: دعوا هذا العاشق الشهيد ينعم بجوار حبيبته، ادفنوه هنا، لا تغسلوه ولا تكفنوه، دعوه في ثياب عشقه وغرامه، وادفنوه في هذا المكان.

ليلة الزين
ديسمبر ٢٠١٠م

كان أبو محمد الليلة أقل قلقًا من ذي قبل، لعل ذلك بسبب حديثه صباح اليوم مع صديقه الأستاذ أبي الحارث، لذا صعد لينام علىٰ سطح غرفته الوحيدة رغم برودة ليل ديسمبر، كانت الكهرباء منطفئة كعادتها في الفترة الأخيرة، فاستلقىٰ تحت نجوم السماء ومعه مذياع صغير يقلب موجاته بقليل من الاهتمام، وأصوات بعض الطيور تصل إلىٰ مسامعه من أشجار الوادي القريب من بيته. عندما كان طفلًا كانت تخيفه هذه الأصوات الغريبة التي تصدر ليلًا من هذا الوادي. كان يقلب الموجات بإبهامه، ويسمع أصواتًا وبرامج مختلفة، لم يكن يحفل بها، بل سرعان ما ينتقل إلىٰ محطة أخرىٰ، فمرة يصل إلىٰ أذنه صوت احتفالات الشيعة بيوم عاشوراء، ومرة نشرات وتقارير، وبين كل المحطات يسمع صوت موسيقىٰ خافتة، ثم يضع المذياع بجانب فراشه غير منصت له.

في كل ذلك وهو يحاول أن يدفع عن نفسه القلق والهواجس التي تتوهج من داخله، ثم تتغشاه سكينة وهو يستعيد كلمات صديقه أبي

الحارث، فقد جلسا صباح اليوم في ظل شجرة المدرسة التي يعمل فيها معلمًا للغة العربية، كانا يجلسان علىٰ الحشيش وينظران إلىٰ الماء الذي يتدفق علىٰ الشجرة من خرطوم أخضر، أخبر صديقه بهواجسه التي بعثها في نفسه كلام الطبيبة، صحيح أن زوجته توقفت عن الإنجاب ما يقارب تسع سنوات بعد أن أنجبت أبناءه الثلاثة متتابعين، فقبل تسع سنوات ومع ميلاد آخر أولاده أسامة أرشدتهم طبيبة في صنعاء إلىٰ التوقف عن الحمل، نتيجة لضعف الزوجة ووضعها الصحي، وكاشفتهم أن هناك ارتخاء في الصمام قد يسبب لها الكثير من المضاعفات، ولكن هذا الحمل الأخير جاء كقدر مفاجئ.

أخذ المذياع وأخذ يقلب موجاته، وذهنه شارد في وضع زوجته، فهي علىٰ وشك الولادة، ومنذ أيام راجعا الطبيبة فكانت تزم شفتيها وتهز رأسها وتشير إلىٰ شكوكها في وضع الجنين، ثم تبتسم وتطمئنهم وتقول: أرجو أن يكون كل شيء علىٰ ما يرام.

قال له صديقه أبو الحارث صباح اليوم: يوجد في العالم أكثر من ستة مليون إنسان كلهم ولدتهم أمهات، فلا داعي للقلق، وقعت تلك الكلمات علىٰ نفسه كالنسمة الباردة في نهار آيار الغائظ، حاول أن يغمض عينيه مستأنسًا بتلك الكلمات، وكانت الإذاعة

ترسل أصواتًا لا يعيها، فجأة تذكر أن في العالم الكثير من الأمهات اللاتي متن بسبب الولادة، لماذا ورد عليه هذا الهاجس في تلك اللحظة؟

أخذ المذياع وضبط موجته علىٰ القرآن الكريم ووضعه بجانبه ثم استسلم للنوم.

في صباح اليوم الثاني طلبت منه زوجته أن يمشي معها علىٰ الأقدام فذلك يساعد علىٰ نزول المولود كما أخبرتها بعض النساء، اتجها جنوبًا فسارا في الوادي، ومرا بكثير من أشجار السدر وبعض الأشواك التي تتناثر في الوادي، حتىٰ وصلا إلىٰ أرضهم التي زُرعت بالطماطم، وهناك جلسا قليلًا وأكلا حبات ناضجة، وأخذا يتحدثان في مواضيع شتىٰ ثم قررا العودة، وقرب البيت قالت له زوجته: هيا نواصل السير إلىٰ أعلىٰ الوادي، فقطعا ما يزيد علىٰ الكيلو متر حتىٰ وصلا إلىٰ أسفل الجبل وجلسا في ظل سدرة كبيرة، ولم يطل جلوسهما هناك فمن طريق آخر عادا إلىٰ البيت وهما مرهقان، والجنين متشبث ببطن أمه وكأنه يرفض الخروج إلىٰ العالم في ظل الظروف التي تعيشها البلاد.

ضحك أبو محمد وقال:

يبدو أن (الزين) أجّل خروجه احتجاجًا علىٰ تردي الأوضاع

الأمنية والاقتصادية.

ابتسمت زوجته بألم وقالت: أظن أن هذا آخر يوم له في عالم الأجنّة وسيكون غدًا بإذن الله ضيفًا علىٰ الدنيا.

لم يكن يملك سيارة لذا ذهب إلىٰ ابن عمه وطلب منه أن يجهز سيارته في حال احتاج لها لإسعاف زوجته إلىٰ المستشفىٰ، كانت سيارة (كرسيدا) قديمة، ولهذا أكد علىٰ ابن عمه أن يتفقدها جيدًا.

وفي تمام الساعة الحادية عشر ليلًا لم تعد باستطاعة أم محمد أن تحتمل آلام المخاض، وكان يسمع أناتها في خوف وقلق وهو يتذكر تحذيرات الطبيبة قبل تسع سنوات، ثم يبرز له وجه الطبيبة التي زاراها قبل أيام وهي تزم شفتها وترفع حاجبيها محدثة أخاديد في جبهتها، هرع إلىٰ ابن عمه وأخذ منه المفتاح، وانطلقت السيارة يقودها أخوه عبد الله، يقعد هو في الكرسي الأمامي وخلفه أمه وزوجته، ولم تمض سوىٰ لحظات قصيرة من انطلاقة السيارة حتىٰ توقفت فنزل أخوه يتفقدها ويحاول تشغيلها دون فائدة، تجمع بعض شباب القرية ودفعوها عدة مرات ولم يظهر أي رجاء في صلاحها، وقف واضعًا يديه علىٰ خصره وهو يلهث من شدة دفع السيارة، ورغم برودة الجو إلا أنه كان يتصبب عرقًا، وفي لحظة الحيرة هذه جاء أحد شبان القرية بسيارته ووضعها بين أيديهم

لينتقلوا إليها مواصلين رحلتهم نحو المستشفىٰ الحكومي الوحيد في مدينة (مودية).

كانت السيارة تسير مسرعة وكأنها قارب سباق يشق أمواج الليل، والأشجار تندفع إلىٰ الخلف كموجات البحر، وسراج السيارة يخترق ظلمة الليل فيرسم ضوؤه خطوطًا ملونة علىٰ صفحة الليل تشبه خطوط الأطفال في دفتر الرسم، كان يهمس في أذن السائق ليزيد من السرعة، ويلتفت نحو زوجته وهي تحاول كتم صيحاتها، ثم ينظر أمامه ليتابع الطريق، فيرىٰ القرىٰ وهي تأوي إلىٰ النوم، والمصابيح تتراقص من بعض النوافذ، حتىٰ تجاوز قرىٰ (أورمة)، وشعر بشيء من الارتياح حين وصل إلىٰ الخط العام، لم تكن تسير في هذا الخط إلا القليل من السيارات لعل ذلك بسبب مشاكل البلاد الأخيرة والجماعات المقاتلة التي تنتشر شمالًا وجنوبًا، مع أزمة المحروقات وصعوبة الحصول علىٰ البنزين.

وما أن وصلت السيارة إلىٰ مشارف مدينة مودية حتىٰ انطفأت الكهرباء، وخيم الظلام والسكون علىٰ المدينة، وفي مدخل المدينة انحرفت السيارة يسارًا إلىٰ الطريق الترابي حتىٰ وصلت إلىٰ المستشفىٰ فتوقفت في باحتها، كانت جميع أبواب المستشفىٰ مشرعة، والمستشفىٰ فارغ إلا من الظلام وبعض القطط التي تتقافز

في نوافذه، وكلب مستلق قرب الباب رفع رأسه نحو السيارة بكسل ثم عاد لنومه. دخل أبو محمد وأخوه يتجولان في أروقة المستشفىٰ وأقسامه فإذا هي مظلمة خاوية، إنه يعرف هذا المستشفىٰ تمامًا فقد كانت له فيه حكايات مع الحقن والصراخ والأطباء أيام طفولته، وها هو الليلة يتجول فيه كما يتجول المستكشف في مدينة أثرية هجرت منذ آلاف السنين، صرخ بأعلىٰ صوته مناديًا هنا وهناك فلا يجيبه إلا الصدىٰ، عاد إلىٰ السيارة خائبًا وهو يلتفت إلىٰ زوجته في الظلام معتذرًا لها مما صنع الزمان بهذا المستشفىٰ الذي كان يومًا يمنح الناس أسباب الحياة، دار بهم السائق إلىٰ الجهة الخلفية حيث يقع سكن الأطباء فنزل مسرعًا يطرق بابًا خشبيًا أجوف، وعلىٰ هذه الضربات خرج ممرض يحمل مصباحًا يدويًا.

ـ نعم، ما لكم؟

ـ ولادة

ـ انتظروا في قسم الولادة حتىٰ أُوقظ القابلة.

ثم ناوله شمعة فدخلوا يتلمسون الطريق علىٰ ضوئها.

لم يمر وقت طويل حتىٰ جاءت القابلة تلعن النور والظلام والأطباء والإدارة والمرضىٰ والمرافقين ثم صرخت بصوت وكأنه يهز ضوء الشمعة:

ـ ما الذي جاء بكم إلىٰ هنا وأنتم تعرفون الحال؟ ألم تيأسوا من هذا المستشفىٰ إلىٰ اليوم؟ هيا إذن شغلوا (الماطور).

تجمع ثلاثة من الممرضين يحاولون تشغيل (الماطور)، كما يتجمع الجراحون علىٰ مريض في رمقه الأخير.

قال أحدهم: للأسف لا يوجد في (الماطور) (ديزل) ثم خطا نحو الظلام وعاد وهو يحمل في يده خزانًا بلاستيكيًا سعة عشرين لتر قائلًا: اذهبوا المحطة واشتروا (ديزل) وعودوا بسرعة.

صرخ ممرض آخر: لماذا لا يوجد (ديزل) وبالأمس تسلمت الإدارة مليونين وأربعمائة ألف ريال؟

فأجابه صاحبه ضاحكًا:

يا أخي نسوا أن يشتروا ديزل.

الوقت يمر بطيئًا، والصرخات تقطع صمت الليل، وأبو محمد يجادل الممرضين في شبه ظلام، والقابلة مستمرة في لعناتها مما أفقده القدرة علىٰ ترتيب أفكاره، هل يأخذ الخزان ويذهب إلىٰ المحطة باحثًا عن (الديزل) والمحطة ليست قريبة، وصرخات زوجته تربكه، ولعنات القابلة تثير غضبه، قطع عليه أحد الممرضين شروده وقال: حتىٰ لو ذهبت إلىٰ المحطة فلن تجد (الديزل)؛ لأن (البترول) معدوم والكهرباء منطفئة، فوفر علىٰ نفسك الوقت

وانطلق إلىٰ الخديرة.

كان ينظر إلىٰ الممرض علىٰ أضواء المصباح اليدوي وسراج جوال الممرض الآخر، فكانت كلماته حاسمة في اتخاذ قرار سريع يوضع زوجته وأمه في السيارة منطلقين، وخلفهم مستشفىٰ أثري يشبه بقايا مدن الحميريين وكتاباتهم المسندية، وقبل أن تغادر السيارة المستشفىٰ التفت إلىٰ البوابة وأحس أنها تبكي تحت الظلام معتذرة، وفي مدخلها سواد كلب نائم بأمان.

كانت السيارة تهتز مسرعة وهو يسترجع مع ـ أنات زوجته ـ بعض الذكريات في هذا المستشفىٰ، وغصة في صدره تتوهج بالألم، عندما كان طفلًا كان هذا المستشفىٰ يعج بالحياة ويزدحم بالأطباء والممرضين والإداريين والمنظفين والمرضىٰ والمرافقين، ما أن يلج بابه حتىٰ تنبعث رائحة (الديتول) و(البنسلين) ومواقد صغيرة للنيران تغلي لتعقم الحقن المستخدمة، لا يزال يتذكر اللحظة التي حُمِل فيها مريضًا ومعه أمه وأبوه، وقرر الطبيب أن يضرب له حقنة فتشبث بالجدار وصرخ خائفًا، ومازال يقاوم حتىٰ غير له الطبيب الحقن إلىٰ عقاقير.

وصلت السيارة إلىٰ الخط العام وانطلقت مسرعة، والتفت إلىٰ السائق كي يدوس بقدمه علىٰ البنزين، ثم عاد إلىٰ ذكرياته

وسط صراخ زوجته، لقد كان يأتي عصرًا لزيارة أخيه المرقد في المستشفىٰ، ولصغر سنه لا يسمح له الحارس بالدخول، فيدور حول المستشفىٰ حتىٰ يجد النافذة التي يرقد خلفها أخوه فيقف يشير إليه من خلف زجاجها.

في طفولته لم يكن يعلم أن هناك دولة اسمها الكويت بل كان يظن أن كلمة (الكويت) تعني المستشفىٰ؛ لأن الناس في قريته كلما أرادوا الذهاب إلىٰ المستشفىٰ قالوا: سنذهب إلىٰ الكويت، وعدنا من الكويت، فهذا المستشفىٰ بنته الكويت هو وغيره من المستشفيات في طول البلاد وعرضها.

تغشته ابتسامة وسط هذه الآلام والبرد والطريق حين تذكر أن بعض الصغار من أبناء قريته هرع إلىٰ المستشفىٰ مع أول سيارة حين سمع الناس يقولون أن الجيش العراقي احتل الكويت، فظن بحكم طفولته أن الجيش العراقي قد دمر المستشفىٰ، وأن ساحته مليئة بالجنود والأسلحة.

كان الطريق من مودية إلىٰ الخديرة خاليًا تمامًا، والخوف يخيم علىٰ المنطقة، هناك جماعات مسلحة تنتشر في كل مكان، وفي شمال الشمال هناك حروب مستمرة، والقتلىٰ من العسكريين يُحملون إلىٰ الكثير من هذه القرىٰ.

وقفت السيارة عند مستشفىٰ الحسين في الخديرة، فبقي السائق في السيارة فدخل وهو يسند زوجته، وفي الصالة استقبلتهم طبيبة هندية تعلوها ابتسامة مصطنعة تلقي معها بعض الكلمات الأعجمية، وأخذتْ أم محمد إلىٰ غرفة الولادة، وبقي هو في الصالة يفرك يديه ويدعو الله، فلما كانت الساعة الثانية وخمسًا وأربعين دقيقة أطلق (زين العابدين) صرخة الميلاد بعد لحظات اختناق يسيرة، وصلت الصرخة إلىٰ سمع الأب فبددت كل الهموم التي تجثو علىٰ صدره وكأنها بعير مريض. غادروا المستوصف، ثم جلس علىٰ كرسي السيارة الأمامي يتنفس بعمق وكأنه عاد منتصرًا من معركة كبيرة.

كانت السيارة تنطلق هذه المرة بسعادة، ودفء الفرح يسري إلىٰ عظامه طاردًا برد كانون القارس، ولكن حصل ما لم يكن في الحسبان، فعند قرية السويداء نفد وقود السيارة فتوقفت، فنزل ودخل القرية وأخذ يطرق باب ونوافذ أقرب بيت فيها وينادي ولكن لا مجيب، ثم ينتقل إلىٰ الباب الآخر، وبعد جهد أطل صاحب البيت وأخذ يتكلم بكلام غير مفهوم.

ـ عفوًا لو سمحت توقفت سيارتنا ومعنا مولود فقد جئنا من الخديرة.

ـ المعذرة سامحوني فقد كانت البارحة في القرية مشكلة، وظننت

ذلك من تداعياتها، نعم تفضلوا معي (بترول).

أخذ (البترول) وتحت جنح الليل عادوا فرحين حتىٰ وصلوا إلىٰ مدينة مودية قبل الفجر، فلم يسمعوا فيها صوتًا إلا أصوات نباح كلاب متقطعة تأتي من بعيد.

ومع بزوغ الفجر استقبل دارهم الصغير مولودهم الصغير، وتسامع بهم الأهل فتجمعوا حول المهد فرحين مسرورين تشع من وجوههم الآمال.

إلا أن أبا محمد في تلك الليلة قرر الرحيل إلىٰ عدن.

أبـي الطِّفـلُ

علىٰ مدىٰ سنوات طوال كان عليَّ أن أفرِّغ نفسي ثالث يوم من أيام كل عيد، سواء كان عيد الفطر أم عيد الأضحىٰ، لكي آخذ أبي السبعيني إلىٰ بيت عمي محسن حيث تقيم أمه العجوز العمياء، لقد أضحت تلك الزيارة بالنسبة لي شعيرة من شعائر العيد لكثرة ما مر عليَّ من السنين وأنا أقوم بها، وشعيرة أخرىٰ مصاحبة لها لا تنفك عنها حيث عليَّ أن أستمع إلىٰ أبي وهو يقصُّ عليَّ تلك القصة التي يكررها مع كل زيارة، وكانت المسافة التي نقطعها في سيارتي من بيتي إلىٰ بيت عمي محسن كافية لكي يسرد لي أبي تلك الشعيرة، عفوًا أعني القصة بتمامها وكمالها لاسيما مع ضيق الطرقات وزحمة السيارات أيام الأعياد.

حقيقة رغم أني أحفظ تلك القصة إلا أنني أستمتع بسماعها من أبي وهو يرويها بكل جوارحه وكأنها وقعت منذ أيام، الدموع نفسها والانفعالات عينها، تتكرر كل عيد.

ما أن أدرت مفتاح السيارة حتىٰ وضع أبي النظارة علىٰ عينيه وأخذ

يسعل ويضع المنديل علىٰ فيه ثم تنحنح واسترخىٰ علىٰ الكرسي الأمامي ثم قال:

كان عمري يا بني آنذاك ثلاث عشرة سنة بالضبط، هذا يعني قبل سبع وخمسين سنة، قطعنا ثلاثة مائة كيلو لنسعف أمي إلىٰ مدينة عدن حيث بيت أمها وإخوانها، كانت ممددة في مؤخرة السيارة تتحسس أيدينا وتتشبث بثيابنا ونحن نجلس متحلقين حول فراشها، وهي توزع بيننا القبلات والنظرات أنا وإخواني.

وفي ضحىٰ ذلك اليوم في بيت جدتي الأرملة، دخلت لألقي نظرة علىٰ أمي، فلما اقتربتُ من فراشها رأيت جدتي وخالتي في أشد حالات الخوف والارتباك وهي تتحشرج، كانت جدتي تجثو علىٰ ركبتيها وتناديها، فاطمة ... ردي عليَّ، أرجوك لا تموتي يكفي أني فجعت بأبيك، ثم تمسح وجهها بالماء البارد، أما خالتي فكانت تمسك برجليها وتغصّ في البكاء، تفاجأت حين سمعت خالتي تقول لجدتي: «أهي تتنفس»؟ قولي نعم يا أماه، بالله ضعي أذنك علىٰ قلبها، ألا يزال قلبها ينبض؟

أما أنا فلم أعد أعي كثيرًا مما أرىٰ،، أخي الصغير (عمك محسن) كان يبكي في أقصىٰ الغرفة يريد أن يرضع ثديه، كان فراش أمي ومن حولها يختفي عن نظري تغشت بصري سحابة سوداء، تداخلت

علي الأصوات، بكاء جدتي وتوسلات خالتي، وأصوات غربان من الخارج تكاد تخترق طبلة أذني، والتلفزيون في الصالة يصدر ضجيجًا إضافيًا. حاولت أن أتقدم نحو أمي فعجزت عن الحركة، شعرت وكأن رجليَّ تخشبتا مكانهما، انتابني غثيان، أردت أن أتقيّأ فما استطعت أن أفتح فمي، حاولت الجلوس فإذا بمفاصلي متصلبة، شعرت أن الغرفة يلفها ظلام كثيف، تسرب إلىٰ جسدي تيار هائج من الخوف، أسمع صراخ أمعائي، ظننت أن إسهالًا أصابني، وضراعات خالتي تقذفني بسيل من الجمود، حاولت البكاء فيبستْ حدقتي، كنت ألتقط بعض خيوط المشهد حين يعود إليَّ شيء من الرؤية، لا تزال أمي تتحرك وجدتي تحاول أن تسقيها كوبًا من الماء.

بدأ يعود إليَّ خيط من الوعي، وجدت نفسي أحاول الهرب من الغرفة، لكن شيئًا ما كان يرغمني علىٰ البقاء، رفعت يدي لأعتمد علىٰ الجدار، لاحظت أن يدي ترتعش، شعرت ببرودة الجدار حين وضعت يدي عليه، نظرت إلىٰ الأسفل، هُيِّئ لي أن الأرض بعيدة عني، صرفت بصري عن أمي حين عاودتها الرعشة مرة أخرىٰ، وجدت نفسي أنظر إلىٰ السقف، كان السقف يتحرك، المروحة والخشب يكاد يسقط فوق رأسي، تمنيت حينها أن ينهار السقف

والجدران فأموت قبل أمي، لا أستطيع أن أتصور نفسي أسير في جنازتها أو واقفًا علىٰ قبرها، لن أستوعب رؤيتي لإخواني وهم بدون أمي، لن أسمح لنفسي أن أعود إلىٰ بيتنا في القرية وأترك أمي ورائي تجاور الموتىٰ هنا في المدينة، فلأمت الآن إذن.

كان صوت جدتي وخالتي يشق جدران قلبي فيتصدع وجداني.

.....

أوقفت السيارة تحت جدار عمي محسن والتفتُّ إلىٰ أبي فرأيته ينتحب وهو يتجاوب مع تلك اللحظة بعد مرور كل هذه السنين.

لقد كتب الله لها الحياة وأنجبت بعد عمي محسن بقية أعمامي.

كريستيانا الفاتنة

لم أكن أتصور أن الأمور ستتجه إلىٰ هذا النحو، كنت أظن أن كريستيانا تمارس نوعًا من المتعة الصباحية والمسائية، فلأكن صادقًا أنا أيضًا مع نفسي، لقد كانت تلك الرياضة تسعدني، صحيح أني لم أكن أنا المقصود من زيارات كريستيانا إلىٰ باحات كلية الاقتصاد في جامعة وارسو، إلّا أنَّ أضواء كريستيانا التي تشرق علينا كل صباح باحثة عن صديقي محمد السوداني، يترك في قلبي آثارًا مدهشة.

جميلة جدًا هي كريستيانا، طويلة بيضاء ذات شعر ذهبي يتساقط علىٰ وجهها الفاتن ويتمايل علىٰ كتفيها العاريين، كنت أنا وبعض زملائي الدارسين في الجامعة ننتظر زياراتها كل صباح قبل أن نذهب إلىٰ قاعات الدراسة.

لقد أصبحت بالنسبة لنا كقهوة الصباح التي افتقدناها في بولندا، والتي تعودنا عليها كعرب في بلادنا، لكن للحقيقة لم تكن كريستيانا كالقهوة العربية، بل هي الخمرة البولندية التي أدمنا شربها منذ وصولنا إلىٰ هذه البلاد التي لا حدود للمتعة فيها، همس أحد

الزملاء المصريين وكريستيانا تتبختر بمشيتها الطاؤوسية:

«ما كان ينبغي لهذه الحورية أن تشغل نفسها بالعمل في الكنيسة، وتضيع أوقاتها في تنصير صاحبنا محمد السوداني».

تسمّرت أعيننا في وجهها الجميل وهي تقترب منا وتسألنا عن محمد السوداني، تسابقنا في إجابتها فكل منا يريد أن يحظىٰ بنغمة موسيقية تخصه بها كريستيانا فتسكبها في أذنيه كأنها السحر، علمتْ منا أن محمدًا مريض، وقد تركناه في السكن المجاور للكلية، والقريب من كنيستها ومنظمتها، يا لها من مجنونة ستذهب لتزوره وتسأل عنه، أما وجدت غير هذا المعقَّد لتستقطبه إلىٰ المسيحية، انطلقتْ إلىٰ الخارج ونظراتنا تتبعها في شبه ذهول.

قال أحد الزملاء السوريين، وبقية من سُكْرِ الليلة الماضية تغالب رأسه: «ما لها لا تدعوني أنا إلىٰ المسيحية، فأنا لا دين لي إلا الجمال؟ لو دعتني لعبادتها لأجبتها!»

الحقيقة أني أنا نفسي شغلني هذا الموضوع وأثار فضولي وعجبي.

ما الذي جعل كريستيانا تشغل نفسها بمحمد السوداني الذي يعيش في عالمه؟، فهو مشغول بدراسته، ما بين البحث والمذاكرة والمكتبة، ثم إنه الوحيد في السكن الجامعي الذي يمارس شعائر

دينه، أراه في أحيان كثيرة جالسًا علىٰ سجادة أحضرها معه من السودان وهو يدعو الله، كنت أرمقه أحيانًا وهو يركع ويسجد ويبكي وربما يقرأ القران.

كانت أجواء وارسو الجميلة وحدائقها الرائعة وطرقها النظيفة تستهويه ويستمتع بها استمتاع الفنان بلوحته، وربما يذهب إلىٰ المتاحف والمتنزهات لكنه يقف هنا، أما أن يعاقر الخمر أو أن تكون له صديقات مثلنا فأحسبه لم يدر في خلده، كنت أقول له: يا محمد، ألا ترىٰ هذا الجمال في هذه المدينة الحرة؟ ألا تفتنك هذه الغزلان التي تسرح وتمرح في الحدائق والطرقات؟ يا محمد أنت في وارسو ولست في الخرطوم، لا شيء هنا ممنوع؟

فكان كثيرًا ما يقول لي:

ـ يا جمال، إن الجمال بداخلنا، يسكن في ذواتنا وما علىٰ الأرض ما هو إلا انعكاس لموقفنا النفسي، علينا أن نحيي الجمال في قلوبنا، ونزيل عنها الغبار الذي يحرفها عن رؤية الجمال الحقيقي.

ـ دع عنك هذه الفلسفة، وقل لي يا محمد ما الذي تريده منك كريستيانا، إنها تطاردك في الليل والنهار، في الكلية، في السكن، في الطريق، وأنت معرض عنها؟ ألا تشعر بها؟ أليس لك عواطف؟

لم يجبني لكنه ضحك بشفتيه وعينيه وكل دائرة وجهه، وتحرك

جسده مع ضحكته، إني أعرفه سوداني طيب القلب خفيف الروح، كمعظم السودانيين، صفاء قلوبهم ما هو إلا صورة لصفاء طبيعة بلادهم، النيل والحقول والغابات والحيوانات البرية تركت آثارها علىٰ شخصياتهم.

ما أدري هل العجيب في الأمر هو وضع محمد أم وضع كريستيانا الفاتنة؟ هي تريد محمدًا ومحمدٌ لا يريدها، الغريب أنَّ الاثنين متدينان، هي تقضي معظم أوقاتها في الكنيسة، وتعمل موظفة في المنظمة التابعة للكنيسة القريبة منا أيضًا، وهو شاب متدين ومثابر، دائمًا يحصل علىٰ المركز الأول في دفعته، هي تلحّ عليه ليعتنق المسيحية، وهو عازف عنها مشغول بشعائره ودراسته، كم مرة جاءت تكلم محمدًا عن المسيح والرب والغفران والجنة الموعودة.

كنت أنا أصغي لهرطقتها، ومحمد ينكس رأسه إلىٰ الأرض يستمع إليها ولا يرفع بصره نحوها، رغم أني لا أفهم كثيرًا عن الدين إلا أني أحاول أن أثير بعض التساؤلات، لا لكي أعرف إجابتها عن تساؤلاتي، بل لأستمتع بالحديث معها وهي تخاطب محمدًا وتناقشني. لقد ذهبت كريستيانا إلىٰ المكان الخطأ، لقد تكسرت سهامها علىٰ جدران قلب محمد وعقله، لقد قهرها صمته

وسكونه وطمأنينة نفسه، لكنها مصرّة علىٰ إنجاز مهمتها، تحمل معها الهدايا والكتب والروايات والصوتيات ولفائف من الورق، تعرض خدماتها علىٰ محمد حتىٰ يجيبها، وكأنها تخاطب جثة هامدة، وهو يخاطبها بصوت ضعيف هادئ : «دعيني وشأني يا كريستيانا، لقد جئت إلىٰ هنا لكي أدرس فأعود إلىٰ بلدي اقتصاديًا ناجحًا يساهم في تنمية بلده النامي الفقير»، وهي تتودد إليه بصوت ناعم: «لا يمنع ذلك يا محمد، سيساعدك الرب في مهمتك إن أنت اعتنقت المسيحية، وستساعدك منظمتنا هناك في بلدك، وتساهم معك في تحقيق حلمك لبلدك الذي يعاني من الفقر الروحي والفقر التنموي، بلادكم غنية لا ينقصكم إلا أن تمدوا أيديكم إلينا لنتعاون معًا في بناء حضارة الرب يسوع.

لم أفهم محمدًا آنذاك حين قال لها: ولكنا نريد حضارة رب يسوع لا الرب يسوع، وهي أيضًا لم تفهم، استأذنها محمد بالانصراف وانسل من أمامها بلطفه المعتاد.

لم أكن في دفعته إلا أني بحكم سكني معه في غرفة واحدة، وتقاربنا في السن كنت صديقه الحميم، أسمعه أحيانًا يقول: يا جمال إنَّ قلبك جوهرة نفيسة إلا أنه يحتاج إلىٰ تنقية، فكنت أجيبه: يا محمد الجوهرة النفيسة بين يديك فلا تضيعها، إنها لؤلؤة ساحرة،

فلا يزيدني علىٰ ابتسامةٍ من عينيه البريئتين.

ما الذي جــدَّ؟

تفاقمت حالة كريستيانا، وأكثرت الترداد علىٰ محمد، وقد لمسنا ذلك بوضوح، مرّ شهران علىٰ هذا الوضع الجديد، إلىٰ أن حصل ما حصل.

عدت ذات ليلة إلىٰ السكن متأخرًا فوجدت محمدًا يحزم أمتعته ويستعد للسفر، ونحن نقترب من موعد الامتحانات.

ـ محمد هل أنت مسافر؟ ليس الوقت الآن وقت سفر.

ـ كريستيانا يا جمال، كريستيانا.

ـ كيف ذاك؟

ـ لقد جاءتني بالأمس فعرضت علي عرضًا أخافني، وخشيت منها علىٰ نفسي، لقد جاءتني إلىٰ الكلية فقالت: «يا محمد اعتنق المسيحية وستمنح ثلاث مزايا: ستعطىٰ الجنسية البولندية، وستعمل معنا في المنظمة براتب كبير، والثالثة هي أعذب عندي وعندك من الأوليين، وهو أن أكون أنا زوجتك وكم يسعدني ذلك».

لقد قررت السفر ولو لمدة شهر أو أكثر لعلها تنساني وتصرف النظر عني.

غاب محمد، ولكنها لم تمض سوىٰ بضعة أيام حتىٰ عاد، لعله لم

يسافر، قد يكون ذهب إلىٰ مدينة أخرىٰ في بولندا لعدة أيام، هكذا تساءلت في نفسي حين رأيته، لكنه فاجأني بتأكيده لي أنه سافر وعاد سريعًا لأمر حدث.

قال محمد: سافرت إلىٰ السودان، ولم تمض إلا يومان حتىٰ وقع لي أمر عجيب.

ـ قل، خيرٌ إن شاء الله ما الذي حدث؟

ـ آويت إلىٰ فراشي ذات ليلة علىٰ سطح بيتي في قريتي علىٰ ضفة النيل، غلبني النوم، فرأيت في المنام أن القيامة قد قامت وإذا الناس فريقان، في صفين طويلين، صف يتجه إلىٰ الجنة، وكنت أنا أقف في هذا الطابور، وصف يتجه إلىٰ النار، ورأيت كريستيانا واقفة معهم، كنت أخفي وجهي عنها، لا يزال يطاردني هاجس متابعتها لي. ومضىٰ زمن والصفوف تسير كلٌ إلىٰ وجهته، وفجأة تلتفت كريستيانا فتراني، فتناديني بأعلىٰ صوت: يا محمد، يا محمد، ثم ترفع رأسها إلىٰ السماء باكية فتقول:

«يا الله.. يا الله.. يا الله.. أشكو إليك هذا السوداني، كم دعوته إلىٰ المسيحية، ولم يدعني يومًا إلىٰ الإسلام، وها أنا أتجه إلىٰ النار».

قمت من نومي مذعورًا فقررت السفر، ذهبت إلىٰ الخطوط السودانية فوجدتها مزدحمة، فسافرت عبر شركة ألمانية خاصة،

ومن المطار اتجهت مباشرة إلىٰ المنظمة لأبحث عن كريستيانا، وجدت عجوزًا هناك فسألتها عنها، انهمرت عيناها بالدموع ثم قالت: «أنا آسفة يا بني، لقد ماتت كريستيانا منذ يومين بحادث سير، لقد كانت تردد اسمك كثيرًا قبل موتها، وتسأل عنك وتود لو تراك، لقد ذهبت هناك إلىٰ العلياء».

بالخطأ

كان الاضطراب واضًحا علىٰ ملامحه وهو يقف بقامته النحيفة ويلتفت يمينًا وشمالًا يتطلع إلىٰ الطريق بلهفة شديدة ووجه ممتقع، كيف لا يكون كذلك وهذه هي آخر لحظات له في الحياة، لم يعد له من أمل في هذه الدنيا إلا أن يودِّع أمه الوداع الأخير.

لقد تأخرت أمه كثيرًا، ولربما نفد صبر الضابط الموكل بالإشراف علىٰ تنفيذ حكم الإعدام فيأمر بالتنفيذ قبل أن يرىٰ أمه.

هل سيفيده هذا التأخير ويمده في الحياة لحظات إضافية قد تزيد أو تنقص؟

هل تعمدت أمه ذلك التأخير ليكسب ولدها ساعة أو بعض ساعة من الحياة.

كان الشاب (نجيب) يتطلع إلىٰ الطريق، والكل يترقب معه: الضابط والجنود، أما طبيب السجن فقد تعب من الوقوف في الشمس، فتنحَّىٰ في ظل شجرة وجلس وأجلس معه حقيبته التي لا تفارقه، لم يكن الجميع مستعجلين، هكذا هم الناس يتعاطفون مع المرء في لحظاته الأخيرة مهما تكن جنايته، فهو علىٰ كل حال

سيموت، فلماذا يبخلون عليه بأنفاس قليلة من الحياة.

مازال (نجيب) شاخصًا ببصره نحو الطريق القادم من البوابة الجانبية، ينتابه شعور متناقض، فهو يتعجل مجيء أمه ليودعها، ويتمنىٰ تأخرها ليكسب مزيدًا من الحياة ليتنفس شيئًا من هواء هذه المدينة التي ولد ونبت فيها.

كان ينظر إلىٰ الباعة الجائلين الذين يدفعون عرباتهم بجانب حائط السجن الصغير من الميدان المخصص للإعدامات، لقد منحهم الله فرصة أطول للبقاء في هذه الدنيا، يسمعهم ينادون علىٰ بضائعهم غير معنيين بشاب عشريني حكم عليه بالموت بسبب شجار نشب بينه وبين جاره علىٰ مساحة صغيرة تقع بين بيتيهما.

ليت قلب الخالة (كريمة) يلين قليلًا، فقد تحجّر بعد مقتل ولدها حتىٰ أصبح كالصخر المدبَّب، وتفجَّرت براكين غضبها ورفضت كل الشفاعات والوساطات والإغراءات، حاول التوسط عندها الكثير من الوجهاء والمسؤولين ورجال الأعمال وأهل العلم وإمام المسجد ونساء الحارة وكثير من الجيران ولكنها كل يوم تزداد رفضًا وغيظًا.

طال به الوقوف علىٰ كوم الرمال الذي سيمتد عليه، ويأتي الطبيب ليضع علامة علىٰ قلبه حيث ستخترق الرصاصة جسده فيبتلع الرمل

دماءه، كان ينظر إلىٰ الرمل فيتخيل الأخاديد التي سيخدها دمه علىٰ جوانبه، هل سيصل دمه إلىٰ الإسفلت أم سينشفه الرمل؟

كانت الرياح تهب بكسل، وأصوات الغربان تملأ المكان، وأزيز الشاحنات يهز المكان، وبعض الجنود يجلسون علىٰ أحجار متفرقة يتناولون الشاي في علب الفول والفاصوليا.

أخذ الضابط المسؤول يقلِّب بعض الأوراق بين يديه ويتمتم للجنود ببعض الكلمات، فهم منها (نجيب) أن الوقت يضيق عليه وأمه لم تصل بعد، فرمىٰ بنظرات استعطاف للضابط، فوقف الضابط ومشىٰ نحوه خطوات وربت علىٰ كتفه وقال: كن مرتاحًا في لحظات الموت هذه، فلن تموت حتىٰ تودع أمك وحتىٰ تحضر الخالة (كريمة) أيضًا، فهي ولية الدم، لازال معنا متسع من الوقت حتىٰ الساعة العاشرة والنصف.

رفع (نجيب) إلىٰ الضابط عينين شاحبتين ووجهًا منهكًا، وأراد أن يشكره علىٰ لطفه وعطفه، ولكن لسانه تحجر، ولعابه نشف، وأسنانه التصقت ببعضها، وأصبح كأنه آلة مصمتة أصابها صدأ السنين، أراد أن يبتلع ريقه ولكن تجويف فمه تحول إلىٰ كهف صخري جاف.

أخذ يتطلع إلىٰ الطريق وهو يستعيد مشهد الاشتباك مع جاره الابن الوحيد للأرملة الخالة كريمة.

ليتني تركت تلك المساحة للخالة كريمة التي تلقتني من بطن أمي، وساندت أمي في حياتها، ونشأت وبيتها كأنه بيتي وابنها كأنه أخي، يا رباه لماذا نزغ الشيطان بيني وبينهم؟

صحيح أنهم أكثروا من التعدي علينا وأخذوا يلتهمون فناء دارنا المرة بعد الأخرىٰ، ولكني لم أتوقع أن تلك الحديدة التي ضربت بها رأسه ستؤدي إلىٰ موته، آه ليت الحياة تعود من جديد ونبيع بيتنا للخالة كريمة ونغادر المدينة ونعود إلىٰ قريتنا حيث المساحات الكبيرة والمجانية.

بينما هو في أمانيه إذ رأىٰ سواد أمه تدلف من البوابة البعيدة لتضع خطاها الثقيلة في الطريق المفضي إلىٰ مكان الإعدام، زاغ بصره فرحًا وحسرة، كان سواد أمه في عباءتها وحجابها يهتز حتىٰ يكاد يختفي، طلب من الضابط أن يحل وثاق يديه حتىٰ يحتضن أمه ويودِّعها، نهض الضابط نحوه وقطع الحبل الذي رُبطَت به يداه، ثم مسح الضابط دمعات ساخنة تسللت من بين جفنيه أخفاها عن الجاني.

أما (نجيب) فقد هرع نحو سواد أمه فطوَّقها وأخذ يبكي، ولكنها كانت تحاول دفعه عنها وهو يزداد بها تشبُّثًا وبكاء مما أفقدها تماسكها فأخذت تحتضنه وتشمه وتبكي، فبكىٰ الضابط والجنود

والطبيب، ومع طول البكاء والعناق تبيَّن لنجيب أن هذه المحجَّبة ليست أمه بل هي الخالة (كريمة)، فأراد أن يخلِّص نفسه من بين يديها، ولكنها لفَّت ذراعيها حول عنقه وأخذت تبكي وتقول: لماذا قتلت أخاك يا ولدي؟ سامحك الله، سامحك الله، لقد جئت لكي أحضر إعدامك، ولكن إرادة الله غالبة، لقد هيَّجتَ كل عواطف الأمومة في وجداني، سامحك الله يا ولدي، سامحك الله، عد إلىٰ أمك المريضة، لقد عفوت عنك.

سامحك الله، سامحك الله.

دمــوع الــذكـريـات

رفعت هيلة الستر العتيق الذي يغطي باب أحد الصفوف ونادت بصوت يدل علىٰ الاستعجال:

ـ هيا يا أم سعيد لقد تأخرنا، لقد أصبحت الساعة السابعة، والمسافة إلىٰ المدرسة بعيدة.

ـ لقد سئمنا من الأكاذيب يا هيلة، فمرّة يقولون سيجري التوزيع عند جولة السفينة، ومرة عند فندق الأشبط، ومرّة ومرّة، وكل مرّة نرجع بخفي حنين.

ـ كل النازحين يقولون إنهم هذه المرة صادقون، والحمد لله أننا قد سجلنا قبل ثلاثة أشهر.

ـ وأين سيجري التوزيع هذه المرّة يا هيلة؟ قالت أم سعيد وهي تلبس عباءتها:

ـ في مدرسة ١٤ أكتوبر.

ـ مدرسة 14 أكتوبر!

ارتعشت أم سعيد وكأنما صعقها مسٌّ كهربائي، وتسمَّرت

مكانها، وقفزت من عينيها دمعتان أخفتهما عن جارتها حين كانت تلبس برقعها.

ـ نعم يا أم سعيد، والمسافة إلىٰ هناك طويلة، خاصة أنَّا لا نملك إيجار السيارة، وسنضطر للمشي علىٰ الأقدام.

انطلقت أم سعيد وصاحبتها إلىٰ الحي الذي تقع فيه مدرسة ١٤ أكتوبر، حيث ستقوم الدولة بتوزيع المؤن علىٰ نازحي أبين.

ما كادت هيلة ترىٰ المدرسة والبيوت المحيطة بها وترىٰ النازحين يملؤون ساحات المدرسة رجالًا ونساءً حتىٰ صاحت في جارتها:

ـ هيا أسرعي يا أم سعيد قبل أن ينادوا بأسمائنا.

وقفت أم سعيد قريبًا من المدرسة، وأخذت تلتفت يمينًا وشمالًا كأنها تبحث عن مفقود، ثم أطلقت تنهيدة كادت تمزق نياط قلبها.

ـ لم يعد له أثر يُذكـر!!

ـ ما هو يا أم سعيد؟ هيا انطلقي قبل الزحام.

ـ هيا هيا يا هيلة! قالت أم سعيد وهي تجر خطاها، وكأنما هي محملة بكل أثقال الذكريات.

اتجهت الجارتان نحو بوابة المدرسة، نظرت أم سعيد إلىٰ اللوحة المنحوتة بالإسمنت في مدخل المدرسة

{مدرسة ١٤ أكتوبر}

شعرت بقشعريرة تغشاها.

الساحات ممتلئة بالنازحين القادمين من المدارس المجاورة، وفي نافذة أحد الصفوف يقف شاب أسمر البشرة ينادي بأعلىٰ صوته أسماء المستحقين للمعونات بحسب الأسبقية في التسجيل.

وقفت أم سعيد وجارتها يصغيان إلىٰ ذلك الصوت عله ينطق بأسمائهما.

ـ لا تبتعدي عني يا هيلة، فإني أشعر بالتعب والإرهاق.

ـ تعالي يا أم سعيد نسترح في ظل تلك الشجرة حتىٰ يأتي دورنا.

جلست أم سعيد وجارتها في ظل شجرة كبيرة مواجهة للصفوف، شعرت بشيء من الراحة بعد الجهد الذي بذلته للوصول إلىٰ هذا المكان، رغم حرارة الجو والعرق الذي يغطي جسدها، وشدة ضجيج الأصوات المزدحمة من حولها، ونعيق الغربان الذي لا يكف عن إزعاجها، رفعت رأسها فرأت لوحة قديمة مكتوب عليها بخط قديم:

{الصف الثامن}

تسمَّرت عيناها في اللوحة، انسابت دموعها تحت برقعها، أطلقت العنان لخيالها ليعيد لها شريط الذكريات، تذكرت أم سعيد يوم كانت طالبة في هذه المدرسة حتىٰ وصلت إلىٰ الصف الثامن، هذه الغرفة نفسها، تذكرت أيامها الجميلة وطفولتها البريئة يوم كانت

تلعب مع صويحباتها في هذه الساحات وتحت هذه الأشجار، تذكرت هدىٰ وسلمىٰ وسعاد وخديجة.

تذكرت أبويها وبيتها الذي يقع بجوار المدرسة والذي بيع بعد موت أبويها، ولم تجد له اليوم أثرًا يذكر، لقد هُدم وبنيت علىٰ أنقاضه محلات تجارية، حتىٰ كاد يختفي مكانه.

صوت ذلك الشاب يقطع علىٰ أم سعيد ذكرياتها الجميلة

.. عبدالله أحمد حسن

.... فضل صالح حامد

ينادي الشاب الأسمر بصوت أجشّ

الرجال والنساء يتقدمون نحو الصوت؛ ليحملوا ما يوزع لهم من المعونات.

تغيب أم سعيد في ذكرياتها، ذكريات الصف الثامن يوم كانت طالبة في هذا الصف تتقافز بين كراسيه وتطل من نوافذه، وتعبث بالسبورة والطباشير، يوم كانت تغني في الفسح مع زميلاتها حتىٰ جاءها العريس من إحدىٰ قرىٰ زنجبار ليتقدم لخطبتها فينتزعها أبوها من مقعدها الدراسي لتُزفّ إلىٰ فارس أحلامها.

ضجيج النازحين يقطع عليها الذكريات، ولايزال ذلك الشاب الواقف في النافذة ينادي

.. محمد صالح سعد العاقل

.. سعيد أحمد محمد

تعود أم سعيد إلىٰ غيبوبتها مع الذكريات فتتذكر زفافها ورحيلها من عدن إلىٰ زنجبار، لا تكاد عيناها تجف من الدمع، تذكرت الحبيب الراحل زوجها، تذكرت مرضه وآلامه ثم يوم وفاته، ثم كيف أصبحت بعده أرملة تحمل هم أبنائها، تذكرت بيتها وبقرتها وأغنامها، تذكرت قريتها وجيرانها.

وماذا فعلت الأحداث بهم؟؟

قطع الصوت عليها ذكرياتها:

.... أم سعيد

نادىٰ ذلك الشاب

وقفت أم سعيد وهي متشنجة

ـ نعم

ـ هيا تقدمي يا أم سعيد لتتسلمي مستحقاتك

صاحت أم سعيد بأعلىٰ صوتها

لا، لا، لا، لا أريد دقيقكم، لا أريد زيتكم، لا أريد صدقاتكم، لا أريد فُتاتكم.

ردوا عليَّ قريتي، ردوا عليَّ بيتي الذي قصفته الطائرات، ردوا عليّ

بقرتي وأغنامي وحضيرتي، ردوا عليَّ جيراني وهوائي، ردوا عليَّ مطلع الشروق في قريتي، ردوا عليَّ احمرار الشفق في غروبي، ردوا عليَّ هزيع الليل علىٰ سطح بيتي، ردوا عليَّ أشجار الموز والمنجا، ردوا عليَّ أصوات مضخات الماء وهي تروي كبدي، ردوا عليَّ ذكريات عرسي ولعب أطفالي، ردوا عليَّ قبر زوجي، دعوني أزور تربته واستنشق عبيره،

لا، لا أريد إحسانكم

لا، لا

تصيح أم سعيد حتىٰ بُح صوتها.

فتسقط مغشيًّا عليها.

يتجمَّع حولها المسعفون

تصيح جارتها هيلة: خذوها إلىٰ المستشفىٰ فإنها مصابة بالسكر ولم تذق طعامًا منذُ يومين!!

صوت ذلك الشاب الواقف في النافذة يشق الصمت

... علي سالم عبدالله أحمد

.. خالد خيران محمد

.. مريم حسين عبدالله

الخطاب المختبئ

لا يدري اليوم لماذا دخل هذه الغرفة المهترئة، لعله لم يدخلها منذُ سنوات.

مكتب خشبي قديم قد تناثر عليه الغبار حتىٰ كاد يغطيه، وكاد يغطي أرضية الغرفة.

فتح النافذة لأشعة الشمس، أخذ شالًا كان علىٰ كتفه لينفض الغبار عن الكرسي.

أتكأ وهو يتأوّه..

تأمّل ما حوله...

جدران متسخة، ستائر ممزقة، بيوت العنكبوت تغطّي سقف الغرفة وزواياها.

كم له من ذكريات في هذه الغرفة، ذكريات الطفولة والشباب، وذكريات الزواج.

مسح دمعةً انسلت من بين جفنيه.

ها هو اليوم يعيش في هذا البيت الكبير وليس معه أحد.

مات أبوه قبل أن يرىٰ هو وجه الحياة، فتركه وأمه الشابة وهذا البيت.

عاشت معه أمه عشرين سنة، ثم أتىٰ عليها ما أتىٰ علىٰ أبيه بعد صراع طويل مع المرض.

ماتت حين كان في أمسِّ الحاجة إليها أيام كان يحضّر لزواجه.

لايزال صدىٰ كلماتها يتردد في أذنيه:

ـ متىٰ يا بني أرىٰ أولادك وأسمع منهم كلمة يا جدّة؟

سحب درج المكتب، فإذا ورقة ملفوفة بصورة عشوائية، أخرج الورقة، أخذ يسوّي وجهها بأصابعه وينفخ عنها الغبار، ارتعش كمن لدغته عقرب حين نظر إلىٰ تاريخ الخطاب، إنه هنا منذُ أكثر من خمسة عشر عامًا.

إنه الخطاب الذي كتبه لزوجته بعد فراقها عن زواج دام أربع سنوات، لعله نسي أن يرسله إليها ووضعه في هذا الدرج ليختبئ هنا إلىٰ اليوم.

أخذ يقرأ:

عزيزتي عبير:

«ربما تتساءلين ما الذي دفعني لاتخاذ هذا القرار المؤلم؟

لقد كان قرارًا صعبًا، ولكنه القرار الذي لا مفر منه، إن لم يأتِ

اليوم فسيأتي غدًا.

سوف أكون لك ظالمًا إذا أمسكتك وأنا لا أكن لك في نفسي ذرّة واحدة من الحب، رغم أنك كنت تمتلكين كل ذرات الحب في نفسي يوم تزوجتك.

لقد أردت أن أجد عندك من الحب والحنان والعطف ما يعوّضني عن حنان أبٍ لم أره، وأمٍّ ماتت في أشدّ لحظات تشبثها بالحياة،، لكنني للأسف رأيت منك صدودًا ونفورًا لست أدري له سببًا رغم أني لا أعلم أن فيّ عيبًا منفِّرًا، بل أنا ولله الحمد شاب خفيف الروح، حسن المعشر، طيب القلب، كما يقول كل من عرفني.

عزيزتي..

كم مرّة جلسنا فنثرت عليك مشاعري واستجلبت كل معاني الحب والشوق والغرام، فلا أجد إلا شابة جميلة جامدة ساهية كأنّ بها صممًا، فأقول في نفسي: لماذا استجمعتَ كل قواك العاطفية لهذه الصخرة العاتية؟ أنت في وادٍ وهي في واد، فلا أملك إلا الدموع أختم بها مجلسنا.

أطرق الباب فلا يفتح إلا بمشقة، وإذا فتحتِ الباب فلا أكاد أرىٰ إلا قفاك في جلّابيتك السوداء التي تلاحقني في كل أرجاء البيت، ثم تتجهين إلىٰ سريرك لتنغمسي تحت لحافك، فلا أسمع إلا

شخيرك.

لا أشم الرائحة الطيبة في بيتك إلا بعد طلب وإلحاح، كم مرّة خرجتُ من بيتي بغير فطور، وإذا تأخرتُ في عملي تغدّيتِ لنفسك ولا تنتظريني، كم مرّة شيّعتني إلىٰ الباب عند خروجي؟

إلىٰ متىٰ تخزنين هذه الثياب الجميلة في خزانتك، وتناوبين بين ثوبين أو ثلاثة؟

لم أسمع منك كلمة حب أو غرام إلا بتكلف وبرودة كأنما هي كلمات معلبة.

كم أتعرضّ لمشاكل خارج البيت وفي العمل تُسهر ليلي وتُكدّر نهاري فلا تشعرين بها أبدًا.

عزيزتي:

إن لديّ عاطفة جيّاشة وحِسًّا مرهفًا عذّب حياتي فلم أجد من أفرغ معه ما فاض من عواطفي، فتجمّعت في فؤادي وألهبت صدري فلم يكن لهذا المصدور إلا أن ينفث بقرار الطلاق.

أتمنىٰ لك من كل قلبي حياة طيبة وسعيدة، وسامحيني إذا ما أسأت إليك في لحظة ضعف بشرية، واحمدي الله أنك لم تنجبي أولادًا خلال مدة زواجنا هذه، لعل الله أن يوفقك بزوج غيري تسعدين معه، وتعيشين الحياة التي تحبينها، أمّا أنا فلا أستطيع أن

أتحمّل هذا اللهب الذي يتوقّد في قلبي يومًا بعد يوم، فوداعًا لك ووداعًا لجميع بنات حواء، دعيني أقضي بقية حياتي مع ذكرياتي في هذا البيت الكبير، الذي شهد يتمي وأحزاني صغيرًا، وتعاستي وتعثر حظّي كبيرًا.

متعكِ الله بحياة طيبة.

كتبه: أبو خالد.

تنفس تنفسًا عميقًا ثم مزّق الخطاب برفق، مزّق الخطاب الذي قضىٰ في مأمنه خمسة عشر عامًا دون أن تمتد إليه يدٌ.

ـ هل أخطأتُ؟؟

ها هي لم تتزوج إلىٰ اليوم وقد قاربت الأربعين

هل ظلمتها..؟

لكن هل ينبغي لي أن أظلم نفسي لتسعد هي؟

رمىٰ قصاصات الورق الممزقة من يده، فتناثرت علىٰ الطاولة، ثم نهض مسرعًا وأغلق النافذة.

وَحْيُ العَقَبَة

هبَّت نسمات باردة في ليل مكة المقدس، وكأنها طافت بالكعبة، وسعت بين الصفا والمروة، ومرت علىٰ جميع المشاعر المقدسة، ثم زحفت إلىٰ أنفاسنا في هضبة العقبة ونحن متناثرون هناك بعيدًا عن المخيمات التي لم نجد فيها لنا متسعًا، كانت الأعداد كبيرة تغطي الهضبة كما تغطي الحشائش ضفاف الأنهار، كان ذلك في ليالي منىٰ، وقمر محدب يسير باستحياء وكأنه يقف في رحاب تاريخ عتيق، أو كأنه سادن معبد بناه نبي كريم.

كانت تلك النسمات الباردة تداعب وجداني، وتمنعني من النوم رغم الإرهاق الشديد، وكأنها طفلة تحتضن وجه أبيها الذي عاد من سفره متعبًا فآوىٰ إلىٰ فراشه فأبت طفلته إلا مداعبته، كانت تلك النسمات تهبُّ من بين الشعاب ومن خلف الجبال والتلال، وكأنها تقلب كتابًا يروي حكايات قرون عبرت هنا في شعاب مكة وأزقتها.

تقلبتُ علىٰ فراشي أحاول استدعاء نوم أتزود به لغدي، ولكن هيهات فنداء الوجدان، وهتافات المشاعر، وحديث الرفقاء

والجالسين تتجمع مثل تيارات السيل التي تأخذ معها ما زار أجفاني من الغفوات.

كانت خلفي امرأة يمنية تجاوزت الستين تتحدث مع جليستها المصرية عن أنواع الأطعمة والطبخات اليمنية، وتقارنها بما تحدثها به جليستها عن الوجبات والعادات المصرية، وإلىٰ جانبي يتقلب كهل يمني علىٰ فراشه محاولًا النوم، وكان بين الفينة والأخرىٰ ينظر إليَّ معبرًا عن امتعاضه من حديث المرأتين، فأراه يحك شعر لحيته الأبيض متململًا، ويهمس إليَّ أحيانًا قائلًا: متىٰ ينتهي هذا المؤتمر الصحفي بين وزيري الطبخ اليمني والمصري؟ تبسمت له ابتسامة ثملة لم تستطع أن تنتشلني من غرقي في أمواج التاريخ والقداسة، كنت غارقًا حقًّا، فقد أتت بي ظروف المخيمات إلىٰ هذه البقعة المتخمة بالتاريخ، فهنا يقال إن إبراهيم انصرف عن ولده وزوجته حين وضعهم تحت الدوحة في بطن مكة، هنا بالذات وفي هذه البقعة يقال إن الشيطان تجلَّىٰ له في صورة ناصح أمين يخوفه من عواقب تصرفه الطائش، ولكن إبراهيم فهم طيش الشيطان الرجيم وتخذيله، فأخذ سبع حصوات فرجمه بها ولعنه، وتكررت نصائح الشيطان، وتكررت رميات إبراهيم؛ فأضحىٰ جميع الحجاج يعيدون في المكان نفسه ما يشبه المشهد التمثيلي لتلك الحادثة لتكون جزءًا

من شعائر حجهم تخليدًا لموقف أبيهم العظيم.

لم يكن يعنيني مع نشوة القداسة الجدل العلمي عن ثبوت تلك القصة من عدمه، حيث لم أجد أي تفسير للحادثة إلا ذاك، وكان يتردد علىٰ ذهني تساؤل عن علاقة رجم إبراهيم ومنح الشيطان وصف الرجيم، لعل ذلك من وحي العقبة التي نتناثر عليها.

وعلىٰ هذه الهضبة يبرز شباب من أجدادي اليمنيين كانوا يومًا يتسامرون هنا تحت جنح الليل في ليالي منىٰ الجميلة، فيأتيهم الرسول فيؤمنون به ثم يتداولون معه دراسة خطة تغيرت بها الجغرافيا والتاريخ، لم يستطع وجداني المنتشي أن يخرِج من تلك القرون فهو يراوح فيها، وتبرز له مئات الصور كأنه يقلب ألبوم عثر عليه في أحد كهوف مكة التاريخية.

نهضت من فراشي ولازالت المرأتان تنتقلان من حديث إلىٰ حديث، ومازال ذلك الكهل يتقلب علىٰ فراشه بملل ويحك لحيته بغضب، وضجيج الأصوات يملأ الهضبة والنسيم يتدفق، والقمر يسبح في سمائه، والنجوم تحيط به كالهالات في وجه الحسناء، تنقَّلتُ من مكان إلىٰ مكان وخمرة القداسة تسيل في دماغي وشراييني كما تسيل زمزم من عمق الأرض والتاريخ، كنت أجلس هنا لأنظر إلىٰ مخيمات منىٰ تحت الليل، وربما جلست أتحدث

مع بعض الحجاج من جنسيات مختلفة؛ فإن كانوا عربًا تبادلنا الحديث، وإن كانوا عجمًا تبادلنا النظرات والابتسامات التي تغني عن الحديث، حتىٰ جلست إلىٰ رجل ستيني ذي لحية اختلط فيها السواد بالبياض، وثياب شامية، ووجه يقطر تقىً، ولسان يقطر ذكرًا وعسلًا، فلمَّا تنبَّه لوجودي مدَّ يده إليَّ ليقبض علىٰ يدي بكلتا يديه الباردتين ويقول: أخوك (محمد الصوالحة) من الأردن، قالها بنبرة شامية موسيقية وكأنه مذيع في برنامج (مساء الحب) الذي تقدمه القلوب المفعمة بالإيمان واليقين.

كانت يدي الصغيرة الباردة بين يديه الكبيرتين تلتمس الدفء من موجات الحب التي يضخ بها قلبه النقي، فيرسلها عبر شرايين المحبة لتتجمع في أيدينا المتشابكة، ولتحوِّل قلوبنا إلىٰ مضخات تتدفق بتيارات الحب المتبادل، فتركنا الحديث للمشاعر وصمتت الألسنة.

سألني: من أي بلاد أنت يا أخي؟

رفعت عينيَّ إلىٰ عينيه فقلت بلسان أثقلته المشاعر: «من اليمن».

ـ أهلًا وسهلًا ومرحبًا بأهل اليمن، أهل الإيمان والفقه والحكمة، أهلًا بأنصار رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، أهلًا بأصحاب القلوب الرقيقة والأفئدة اللينة.

ـ أهلا بكم يا أهل الشام، يا خيرة الله من خلقه، يا من لا خير في الناس إذا فسدت بلادكم.

سألت الأخ الصوالحة:

من أي مدينة في الأردن أنت؟

قال: أنا في الأصل فلسطيني من قضاء الرملة، نزح جدي من فلسطين عام ١٩٤٨م، كان عمره آنذاك عشرين سنة، كانت العصابات اليهودية تزحف علىٰ المدن فتقتل من فيها، وتدمر القرىٰ والمدن، وتحرق الزروع والثمار، وتهدم البيوت علىٰ رؤوس أصحابها، فكان لابد من النزوح حيث لم يكن لنا ناصر ولا معين، وتعاون علينا العالم كله وخذلنا إخواننا.

كان يتحدث والحمرة تطفو علىٰ وجهه، وعيناه ترمقان من تحت نظارته الفضية، وأصابعه متشابكة يفرك بعضها بعضًا، لا أدري هل ذلك طلبًا للدفء أم أن أصابعه تمثل تلك الاشتباكات التي يحدثني عنها.

قلت: وهل يعني هذا أنك الآن أردني بصورة مكتملة؟

قال: نعم، وهكذا معظم الذين نزح آباؤهم في ١٩٤٨م، فنحن أردنيون تمامًا وإن كانت أصولنا فلسطينية.

قلت: وهل تستطيع زيارة قريتك في قضاء الرملة؟

قال: من الناحية القانونية ذلك متاح لنا كأردنيين وفق اتفاقية السلام، لكن لن يكون ذلك مني أبدًا؛ لأنه نوع من الاعتراف بإسرائيل، مع أن بعض الفلسطينيين ذهبوا لزيارة قراهم وحاراتهم التي غيَّر اليهود كثيرًا وقليلًا من معالمها، ولكني لا ألومهم فلهم عذرهم وظروفهم أما نحن فلم ولن نذهب.

ثم استطرد قائلًا: لا زالت معنا وثائق أرضنا وممتلكاتنا، ولا زال أبي يحتفظ بعملة فلسطينية جاء بها جدي من فلسطين، ولقد حاول بعض الفلسطينيين أن يقنعوا أبي بالذهاب إلىٰ هناك ليعرفهم علىٰ قراهم ومناطقهم، فرفض رغم إلحاحهم الشديد، فلما سألته عن رفضه قال:

«يا بني لقد أخبرني الذين ذهبوا إلىٰ هناك أن قريتنا لا زالت علىٰ حالها عام الخراب ولم يعمرها اليهود ولم يقتربوا منها، إلا أنه لم يعد يسكنها أحد، وهي أشبه بمناطق عسكرية مهجورة، ويعز عليَّ أن أرىٰ بلدتي وقريتي وبيتي ومزارعي وهي خرائب مغتصبة».

لما قال جليسي ذلك قفز خيالي ليرسم المكان وكأنه يقف علىٰ تل هناك، وكأني أنظر إلىٰ بقايا منازل، وآثار مزارع، وخطوط لطرقات تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد، وقرىٰ وسهول تتلفع بالسواد حزينة تبكي علىٰ الراحلين وتنتظر القادمين، فقد طال عليها الانتظار حتىٰ

أوشكت أن تمل البكاء، وكأني أنظر إلىٰ البوم والدبابير والعناكب والهوام، وقد طاب لها بين تلك الجدران المقام، وهناك بقايا عظام متحللة لقوم كانوا يومًا أهل هذه البيوت، وفلاحي تلك المزارع.

ضرب أخي الصوالحة علىٰ كتفي حين رأىٰ الدمعات تتدفق من عينين أرهقهما السهر والسفر وقال:

لا تحزن يا ولدي فنحن نعيش علىٰ ميعاد لابد أن يأتي، سنعود إلىٰ أرضنا يومًا ونصلي في أقصانا السليب.

يا بني علينا أن نكفكف دموعنا ونستمر في إصلاح قومنا ونجتهد في تغيير بيئاتنا ولن يخذلنا الله.

يا بني حين علمت زوجتي أنها حامل دعت الله أن يرزقها ولدًا يكون مؤذنًا للمسجد الأقصىٰ وأسمته (بلال)، ولد بلال، ولشدة تعلقي بالأمل رأيت في منامي أنني أصلي في المسجد الأقصىٰ وبلال يرفع الأذان، نحن نعيش علىٰ الأمل وكل فلسطيني له بلال وسعد وخالد والقعقاع وعمرو والزبير، امسح دمعاتك يا ولدي وارفع يديك المبللتين بالدموع إلىٰ مولاك لعلكم تكونون يومًا أو أحد أبنائكم من الزاحفين إلىٰ المسجد الأقصىٰ المبارك.

صافحني الأخ محمد الصوالحة ثم استلقىٰ قريبًا مني علىٰ بطانيته، جمع أصابع كفيه وشبك بينهما ثم وضعهما خلف رأسه

على وسادته ومد رجليه، ثم رفع قدميه على حقيبة متوسطة، وأخذ يتمتم بكلام غير مفهوم إلا أنه لم يخلع نظارته.

أما أنا فقد جلست أرقب منى منتظرًا طلوع الفجر الصادق.

مُستحيل ممكن

قال الملك شهريار لحبيبته شهرزاد:

سأعطيك الليلة لغزًا يا حبيبتي شهرزاد وفكري فيه مليًّا قبل الإجابة.

فرحت شهرزاد، حيث وجدت أنه سيريحها هذه الليلة من سرد حكاياتها المعتادة، فلعلها تطيل معه الحديث حول لغزه هذا إلىٰ طلوع الفجر حين يصرخ الديك ويغالبه النعاس، فتتيح له الليلة فرصة للحديث وتحسن هي الإنصات إليه.

ـ قل يا مولاي فكلّي آذان صاغية، لكن لا تتعجَّل عليَّ في الإجابة حتىٰ يبزغ خيط الفجر.

ـ شهرزاد، ماذا يصنع العصفور الذي ابتلي بحب سمكة من أسماك البحيرة؟

ـ عليه يا مولاي أن يحتفظ بكل عواطفه لعصفورته الجميلة التي تُسمعه أعذب الألحان، فعندها سيجد الظل الظليل والماء السلسبيل، وينعم بقرب أفراخه وسماع زقزقتهم، ويهنأ بالعيش في عشه بينهم. حبُّهُ لعصفورته المغردة هو الحب الطبيعي الموافق

لقوانين الحياة يامولاي.

ـ لكن قلبه هناك عالق مع سمكته التي تنتظره علىٰ أطراف الماء تحت أغصان الشجرة الكبيرة.

ـ سيطول انتظاره يا مولاي، وتتضاعف حسرته، وتتصرَّم الأعوام، وتنقضي السنون، ويهرم وتهرم سمكته وهو يغني علىٰ أغصانه بأغاني الغربة والفراق والهجران، وهي تتلوَّىٰ في أمواجها، وتتطلع إلىٰ ما لا سبيل إليه؛ لأنهما يرجوان المحال ويحاولان اللا ممكن.

ـ وهل في الحب شيء اسمه المحال واللَّا ممكن يا حبيبتي؟ إن للحبِّ قوانين لا تخضع لقوانين الحياة، ففيوض عواطفه تسير في الفراغ فتعانق السحاب، وتناغي القمر، وتهبُّ مع الريح، وتهطل مع المطر، وتسافر مع القافلة، وترحل عبر القرون فترحم العشاق، وتواسي المحبين وتذرف الدموع مع الهائمين، فهي تركب الموج بغير سفين، وتطير في الجو بغير جناح، ألا ترين أن المشتاقين لا يشعرون بحرّ الغيظ ولا بزمهرير الشتاء؟

ألا ترينهم يخاطبون النجوم، ويضاحكون السماء، ويشكون إلىٰ الليل؟

ـ لكن هذا كله يا مولاي لن يصنع للعصفور خيشومًا، ولا للسمكة رئة ومنقارًا، فما فائدة التماهي مع هذا الحب الذي لا ينتهي بوصال؟

ـ الحب وحده هو الوصال، يكفي العصفور أن يسمع حديث حبيبته ويصغي إلىٰ أنَّاتها، ويظل بجوارها، وينعم بقربها فلعله يستيقظ يومًا وقد أصبح له خيشوم أو علَّ سمكته تطير معه إلىٰ أشجار الغابة النائية بعيدًا عن أعين الرقباء، وما يدريك يا شهرزاد أنه الحب وقوانينه!

ـ بل هو الجنون وفنونه، والوهم وصبيانيته يا مولاي الملك.

ـ وهل يسعدنا الجنون يا شهرزاد؟ هل يخرجنا من غلاف واقعنا الذي جيّر أحلامنا، وكبَّل آمالنا، وجمَّد طموحاتنا؟ إن حياتنا ليست أكوامًا من الحجارة، إنها نغمة شجية، ولحن عذب، وجدول جارٍ، وخميلة ضاحكة، وزهرة جميلة، وفراشة زاهية، ونحلة طائرة، وموج رقراق، وحلم جميل، وأماني عابرة، وأمل منتظر، ووليد مبتسم. الوهم أن نعيش في عشٍ من الجحيم نحسبه نهاية النعيم، ونغني بأغاني العذاب نخالها تغاريد السعادة.

ـ مولاي هاه هاه هاه.. إني أشعر بالنعاس يكاد يصرعني، وهذا الفجر قد أطل علينا بأنواره، هاه لا أستطيع أن أكمل معك الحديث، دعني أنام وعند الصباح. هاه....

ـ عند الصباح يا شهرزاد سيطير العصفور المشتاق بأجنحة السرور إلىٰ شجرته التي تعوَّد أن يناجي منها حبيبته، وهناك بين الأغصان

والضباب سيعزف أجمل الألحان، وهي تتقلب بين الأمواج، مع طلوع الشمس ستبدأ معزوفة الهيام في مهرجان الحب الخالد الذي لا يعرف الحدود ولا القوانين.

سنوات الضياع

تعودتُ منذ زمن بعيد علىٰ هذا الوضع، ولم أكن أكترث بكل العقبات التي كانت تواجهني، في البداية كنت أشعر بالخوف والتردد، خاصة أني كنت طفلة صغيرة، لكن أمي كانت تشجعني، وتحفَّظني بعض العبارات التي ألقيها علىٰ آذان المحسنين علىٰ أبواب المساجد وأمام صفوف المصلين، وكلمات مؤثرة أخرىٰ أخاطب بها أصحاب المحلات التجارية الكبرىٰ والمسافرين في السيارات الواقفة في (الفرزة)، منهم من يجود عليَّ ببعض النقود ومنهم من يتعجب من كلماتي البليغة فيبتسم في وجهي. مرت السنون وبدأت تظهر عليَّ علامات البلوغ، فرأت أمي أنه لابد لي من لبس البرقع ليستر جمالي، ويدعو الناس للتعاطف معي.

مات أبي وترك لنا بيتًا نأوي إليه وراتبًا شهريًا يكفينا، بل ويزيد عن حاجاتنا الأساسية، كنت بحاجة إلىٰ أن أبقىٰ في بيتي وأذهب إلىٰ مدرستي كبقية أترابي، لكن جشع أمي وحبها الجنوني للمال دفع بي إلىٰ الطرقات والأبواب، وأورثني المذلة والمهانة والضياع، ليس هناك شارع في المدينة إلا ووطأته قدماي الحافيتان، ولا سوق إلا

وتجولت علىٰ محلاته طلبًا للمساعدة، كم هي عبارات الاستجداء وكلمات الإلحاح التي كررتها حتىٰ مجَّها سمعي وملتها لساني، كم هي الأساطير والأكاذيب التي أرويها للناس حتىٰ يشفقوا عليَّ.

كنت وأمي نشرب الماء من برَّادات الشوارع، ونتناول طعامنا في مداخل المطاعم، أحسد صديقاتي اللواتي يذهبن إلىٰ المدارس، كان منظرهن وهن يتقافزن ويتضاحكن عند الشروق يملأ قلبي بالحسرات، كانت لحظات إيابهن وهن يحملن حقائبهن ويرفعن أصواتهن بالأناشيد الجميلة تهز جوانحي، يا ليتني كنت معكن، ليتني أحفظ نشيدكن، ليتني أرىٰ مدرستكن ومعلماتكن، لقد فرضت عليَّ أمي مسارًا في الحياة، رسمه لها خوفها من الفقر فقذفت بي إلىٰ التيه والحيرة، إلىٰ صناعة الأحزان واختلاق المصائب وتزييف الدموع.

لم نكن بحاجة إلىٰ السير في هذا الطريق، كيف لو علم أبي الذي كان يخشىٰ عليَّ من هبة البرد، وضوء الشمس وضجيج السيارات، كيف لو رأىٰ ابنته البكر (جواهر) وهي تخط المدينة ذهابًا وإيابًا، في حر الصيف وشدة البرد، كيف لو رأىٰ طفلته المدللة (جواهر) وهي تقيل في ظل جدران الفنادق والعمارات وتحت مظلات السيارات، إنها سنوات مريرة، وذكرىٰ مؤلمة، لو لم تنقذنا منها

(دموع الشيخ عبد القادر)، ربما هوت بنا إلىٰ المجهول، لم أكن أتصور أن للعاطفة فيضًا وعطاء تتقاصر عنه أيدي الباذلين وجيوب المترفين.

في تلك الليلة جلسنا في الجانب الداخلي لباب المسجد، بعد انتهاء الصلاة وقفت أمي تشرح للناس فقرنا وعوزنا والأمراض المستعصية التي تحتاج إلىٰ المال الكثير، والديون التي ركبتنا من جراء تلك الأمراض، إلىٰ آخر تلك الأكاذيب التي تستدر بها عطف المحسنين، في تلك الليلة قالت للناس: إن الوقوف بين أيديكم مذلة والسكوت عن حال ابنتي الشابة جريمة، هذه فتاة يتيمة وفقيرة ومريضة، إنها لا تحتاج منكم الكثير، فقط تحتاج إلىٰ من يتبرع لها بالدم، ومن يدفع لنا ثمن الفحوصات لهذا الدم، أكملت حديثها فجلسَتْ، فاتكأتُ علىٰ كتفها حتىٰ يشعر الناس بشدة مرضي، لم نكن بحاجة إلىٰ الدم، وكان المقصود هو ثمن الفحوصات، انصرف المصلون ولم نحصل علىٰ شيء يذكر، فقررت أمي البقاء في المسجد إلىٰ صلاة العشاء لتكرر المحاولة ثانية، تكرر المشهد في صلاة العشاء، وتكررت النتيجة.

بدأ المسجد يخلو من المصلين حتىٰ لم يبق فيه غير إمام المسجد (الشيخ عبد القادر)، حيث تأخر يصلي ويذكر الله ويقرأ في كتاب

كان بجانبه، أغلق كتابه وحمل نعليه في يده اليسرىٰ، ثم اتجه إلىٰ الباب منصرفًا، عندها خاطبته أمي:

ـ يا شيخ، نحن في حاجة إلىٰ المساعدة، هذه ابنتي الشابة مريضة وتحتاج إلىٰ الدم و ثمن الفحوصات، وأنا أرملة، عضَّنا الفقر وغصَّنا الجوع، وحطَّمنا المرض، فإلىٰ من نشكو حالنا، ليس لنا بعد الله أحد نلجأ إليه، وقد بذلنا أنفسنا وأهرقنا ماء وجوهنا، وتعرضنا للهوان، فهل أسلم ابنتي هذه للموت ليلتهم شبابها وإلىٰ القبر ليفتت عظامها، لو كان أبوها حيًا لكانت الآن ترقد في أبهىٰ المستشفيات، وتتلقىٰ أرقىٰ أشكال الرعاية، بل ربما إنها ما تعرضت لهذه الأمراض التي تزحف عليها بسبب سوء التغذية وانعدام الوقاية.. ومازالت تفيض عليه من هذه الكلمات حتىٰ جلس علىٰ كرسي قبالة أمي.

كنت أتأمل وجهه من وراء برقعي، يلبس ثوبًا أبيض وعمامة بيضاء، ووجهه أبيض، أما لحيته فكانت سوداء خالطها قليل من البياض، وفي جبهته أثر السجود، يشع وجهه نقاء وطهرًا وصدقًا، رأيت عينيه تترقرقان بالدمع وهو يصغي إلىٰ أكاذيب أمي، شعرت أن فيضًا من عواطفه يجيش في صدره فيتدفق نحونا أنهارًا فتغمرنا بحنانها، أخذتْ دائرة وجهه تتمايل أمام عيني الزائغتين، خُيِّل لي أنه أبي، أخذت في البكاء حتىٰ رحمني، ظن أني أبكي لحاجتي وآلام

مرضي، أما أنا فلست أدري أأبكي لمتاهتي؟ أم أبكي أبي الراحل؟ أم إشفاقًا علىٰ أمي وتماديها في الخداع؟ أم علىٰ هذا الوجه الملائكي البريء المخدوع؟.

قال الشيخ: لا عليك يا ابنتي سأذهب معك إلىٰ المستشفىٰ، وأتبرع لك بدمي وأدفع أجرة الفحوصات، رجائي لا تبكي، سأعطيك ما تحتاجين إليه. اختلطت صرختي ببكائي حينما قلت: لا أيها الشيخ الصالح، أنا لست مريضة، أنا ضائعة ضيعتني أمي، حرمتني من طفولتي، كسّرت ألعابي، ووأدت أحلامي، أنا لا أريد دمًا، أريد أن أعيش كما تعيش الفتيات من أمثالي، أريد مدرسة، أريد أن أفرح بالعيد، أريد أن أطبخ وآكل في بيتي، أريد أن تكون لي صديقات يزرنني إلىٰ غرفتي، لا أريد أحدًا أن ينادني بالشحاتة، أريد أن أفرح بخطيبي وأن احتفل بعرسي، وأشم أبنائي، أريد أن تتوقف أمي عن خداعها وتسولها.

أيها الشيخ، إما أن تكفَّ أمي عن السير في دربها هذا، وإما أن تأخذني إليك وتضمني إلىٰ بناتك لآخذ حظي من السعادة، وأودع ليل الشقاء، سئمت من المشي في الطرقات، والوقوف علىٰ أبواب المساجد، ومد كفي للمارة.

وهنا ارتعشت أمي حتىٰ غشي عليها، فاحتضنتُها وقلت: سامحيني

يا أمي إن أسأت إليك، لعلك معذورة في خوفك من الفقر والعوز، لكنك غير معذورة حينما تسحقين وردتك الجميلة، وتبعثرين رحيقها، وتلقينها مزعًا في قارعة الطريق.

وكانت تلك آخر ليلة مددنا فيها أيدينا للناس.

مـاء الـورد

منذ الصباح وهو يلح علىٰ أخته العانس أن تهتم بتزيين غرفته ورش العطر والبخور فيها، يشير عليها من كرسيه المتحرك أن تصلح هذا السجاد، وترتب هذه الكنبة، وتضبط وضع الستارة، وتفتح جزءًا من النافذة يطل علىٰ شجرة بجانب الجدار، شعر بتيار من القوة والسعادة يغمره من أعلىٰ رأسه إلىٰ أخمص قدمه.

هل علمت فاطمة بأن وقت مغادرته للكرسي المتحرك قد اقترب فجاءت تزوره خجلًا من تقصيرها في زيارته خلال الستة الأشهر الماضية التي قضاها علىٰ كرسيه بسبب علة أصابت عموده الفقري، هو يعلم أنه من المستحيل أن يُسمَح لها بزيارته ولهذا كان يعذرها، لكنه كان يتشوّف لزيارتها. قبل مرضه كان يخرج إلىٰ مزرعته فربما لمحها في الطريق أو بجانب بيتها وهي تنشر الثياب أو تتطلع لأبنائها الثلاثة وهم يلعبون تحت شجرة عظيمة بجانب بيتها.

استرخىٰ علىٰ كرسيه ورائحة البخور تملأ المكان، وأخذ يتذكر سنواته الخالية، منذ طفولته وهو متعلق بها لم يكن يتصور أن تأتي اللحظة التي تفرق بينهما، أحبها كحبه للحياة بل لم يحب الحياة

إلا لأجلها، كانت بالنسبة له هي كل المعاني والمشاهد والمناظر الجميلة في دنياه، كانت تبادله الحب وتنتظر لحظة الاجتماع تحت سقف الزوجية الموعود، كانا يجلسان تحت شجرة برتقال في بستان أبيه، ويطلقان لخيالهما العنان لرسم المستقبل البهيج الذي ينتظرهما، ويخططان للحياة السعيدة التي سيعيشانها؛ شكل البيت، ووضع النوافذ، ومكان الديوان، ولون الطلاء، ونوع الفرش والستائر، وأسماء الأبناء والبنات. نبت حبه في قلبها حين نبتت فيه العواطف، ونمت بذرته حتىٰ تطاولت علىٰ كل أشجار البرتقال والنخيل التي يراها في مزرعة أبيه.

بعد أن تزوجت ضاقت عليه الدنيا، وانهارت آماله، وودع السعادة، وفارق النعيم. تحول نهاره إلىٰ دموع، وليله إلىٰ ذكريات، كان يقضي معظم نهاره في البستان، يتتبع آثارها.

فتحتَ هذه الشجرة ضحكنا، وعند هذه الساقية تعثرتْ، وهناك في أطراف البستان كانت تجري كأنها الأرنب البري، لا بل الغزال الجميل، في هذا المكان كانت تقذفني بالحصىٰ وأنا أقذفها بنوىٰ التمر، من هنا شربت الماء في الصيف. كان يجلس بجانب بناء صغير من الطين عبارة عن مجسم لبيتها الذي تخيلته. مرت السنوات وهو يحافظ علىٰ ذلك البيت ويحوطه بعنايته، يشعر أن

لمسات يديها لا تزال عالقة بالطين، كل مكان في البستان يذكِّره بها، حتىٰ أعشاش الطيور كانت جزءًا من حديث الغرام بينهما.

أما الليل فذكريات ومنامات وخيالات، كانت تزوره بعد فراقهما مباشرة في النوم كل ليلة، يراها تجري نحوه هاربة من أبيها وإخوانها الذين أرغموها علىٰ الابتعاد منه وزوجوها بالشاب المغترب الوافد علىٰ قريتهم من مكان بعيد، كانت تأتيه باكية فترتمي في أحضانه، فمازال يربت علىٰ شعرها حتىٰ تنام في صدره الحاني، لكنها تسقط فجأة من بين يديه ثم تتلاشىٰ كأنها بخار يصعد نحو السحاب فيصيح باكيًا، لتأتي أخته توقظه من كوابيسه المزعجة، تقرأ عليه آية الكرسي وسورة الفاتحة، وهو يبكي بين يديها كأنه طفل حائر.

مرت السنون وخفَّت زياراتها له في المنام،

عزف عن الزواج وفاء بعهده لها، ورفض كل العروض، ولم يلتفت لإلحاح أخته التي تذكره بأنه وريث أبيه الوحيد، وأن أباه مات وهو يرجوه أن يتزوج وينسىٰ فاطمة، كانت أخته تكرر عليه عباراتها الممجوجة:

ها هي تزوجت وتركتك، لو كانت تحبك لوفت لك بعهدها، لقد أصبح لها ثلاثة من الأبناء وأنت تقتات الأوهام، كان لا يكلف نفسه الرد علىٰ أخته فهو يعلم أنها فارقته مكرهة، وذهبت إلىٰ زوجها

كأنها محمولة علىٰ جنازة.

عندما اقترب يوم زفافها أرسلت إليه مع إحدىٰ صديقاتها أن يغادر القرية ذلك اليوم حتىٰ لا يشهد تشييع جنازتها، أجابها يوم ذاك أنه يموت كل يوم وكل لحظة، وأنه علىٰ العهد.

لم تزر بيته منذ خطوبتها رغم تقارب بيتيهما، لكن ما الذي دعاها اليوم وبعد هذه السنيين الطوال لزيارته، سمع أن زوجها في طريقه لزيارة البلاد في إجازته المعهودة.

هل لهذا علاقة بزيارتها إلىٰ بيته؟

هل لمرضه دور في زيارتها؟

هل جد جديد في حياتها؟

أسئلة كادت تعصف بقلبه الولهان، وجسده المنهك، وعظامه المريضة، لكنه علىٰ أية حال جذل مسرور يكاد يقوم علىٰ رجليه رغم إعاقته.

كيف يستقبلها؟

ماذا سيقول لها؟

ماذا ستقول له؟

هل تغيرت كثيرًا؟

فهو لم يكن يراها جيدًا منذ زواجها.

لا.. لعل خبر زيارتها لي أكذوبة من أختي، لكنها أقسمت أغلظ الأيمان علىٰ ذلك.

ـ صابر

أفاق من سباته علىٰ نغمة صوتها، إنها هي بشحمها ولحمها وصوتها الرقراق، خفق قلبه، تصبب جبينه عرقًا، أخذ يرفع رأسه نحوها ويطأطئه، كأن أطرافه انفصلت عن جسده، برودة تسري في كيانه ورعشة تهز أنامله.

ساد الغرفة وجوم طويل، وتجمدت الكلمات في الصدور، شعر بطنين يدوي في أذنيه، وجفاف في فمه حجَّر شفتيه ومنعهما من الكلام.

ـ صابر، جئتُ لأودّعك وأستسمحك، عشر سنوات وأنا أعيش وسط لهيب النيران، حالك يؤلمني لدرجة تنسيني أسباب ألمي.

ـ صابر، سأرحل من هذه القرية بلا عودة، هكذا اتفقت معه، لا أستطيع العيش في قرية أراك فيها معذبًا في كل لحظة، عذابك يزيد عذابي، عليَّ أن أرحل وأحمل حبي وحزني وألمي معي، سيأتي بعد أيام ليأخذني معه، لن أعود إلىٰ هنا ولن تراني مرة أخرىٰ، جئت لأراك قبل رحيلي، آه ليتني أموت فأستريح.

قد تكون أنت يا صابر أسعد حالًا مني

الوداع.. الوداع يا صابر

أرجوك، قل شيئًا، صمتك يعذبني

تكلم يا صابر

ـ فاطم..... إن عدتِ يومًا إلىٰ هذه القرية فأحضري معك علبة من ماء الورد، واسعي إلىٰ قبري ثم صبيها عليه وقولي: إن في هذه الحفرة قلبًا أحبني وعاهدني وحملني معه حتىٰ أنزلني إلىٰ لحده.

في أمان الله صحبتك السلامة.

الطفلُ القَنْدَهاري

كان البرد في مدينة (جهنغ) الباكستانية شديدًا، وكانت النار هي خير متاع، لم أذق حنان النار إلا تلك الليلة، كانت المدفأة هي معشوقتي الفاتنة، رأيت فيها أكثر مما رأىٰ قيس في ليلىٰ، وجميل في بثينة، وروميو في جوليت، بل شعرت بأمومتها وعطفها عليَّ، يخيل إليَّ أنها تضمني بجناحيها الدافئين، وموجات حرارتها تتسلّل إلىٰ جسدي حتىٰ تستقر في عظامي فتشعرني بالسعادة والعافية والانتعاش.

هيه يا مدفئتي الجميلة، كم يطيب لي معك السمر في هذا الليل القارس.

كان الهواء البارد يهز الستارة التي تغطي الباب، فتتدفق موجات من البرد غضبىٰ وكأنها ثيران هائجة، ولكن أنَّىٰ لهذا العاشق أن ينشغل بغير سميرته، وكلما هزت دفقات البرد الباب كانت مدفئتي تبتسم هازئة فترسل دفقات دفئها بين ثنايا وجهها الجميل، كنت أناجيها وحدي في غرفة الضيوف.

اقتحم عليَّ خلوتي تلك ثلاثة شُبَّان أفغان، يبدو أنهم وصلوا

للتو من منطقة بعيدة، إنهم مثلي يلتمسون الدفء في ليل جهنغ الغاضب.

جلسوا عن يميني وشمالي حتىٰ أحطنا بالمدفئة كما يحيط الأطفال بأمهم في ليل الصحراء البارد.

ـ (نحن من أفغانستان)

ياه ماذا أثارت هذه العبارة من شجون!!!

أفغانستان؟

وكأنني أبحث عن بقايا حلم، أو بقايا ذكريات، أو بقايا أطلال من أمل فقدته كما يفقد الأطفال الضعفاء أباهم وتسلمهم الحياة لليتم والفقر والعوز.

قفزت إلىٰ ذاكرتي بقايا أناشيد الجبال وصور الدمار، كانت لنا هناك آمال جرفتها عواصف الثلج وطمرتها سنون الانتظار.

أفقت علىٰ اهتزاز الباب وهو يحاول مقاومة موجات البرد العنيدة، فرأيت مدفئتي تغني معي أغاني حلم ذهب إلىٰ أدراج الذكريات، وحولي فتية من قندهار ينفخون في أيديهم طلبًا للحرارة، وكأنهم ينفخون رمالًا زحفت علىٰ حلمي الجميل ذاك.

ـ هل أنت عربي؟

نطق أحدهم بعربية مكسرة وبسمته الجميلة تعانق موجات الدفء

المتصاعد من بين ضلوع المدفئة.

ذهبت إلىٰ الضفة الأخرىٰ وأطلت في ذاكرتي عشرات السنين.

نعم أنا عربي إلىٰ قحطان أنتسب

قحطان؟ عدنان؟

رباه رحماك بقومي؛ فقد رمتهم الأمم عن قوس واحدة، ونبت فيهم مليون أبا رغال.

يا إلهي! ماذا يجرىٰ لوجداني الليلة

هل هي من آثار خمرة الليل والغربة والشوق.

الخمر؟

أي خمر؟ فأنا لا أعرفها ولم أرها في حياتي ولم أر قط سكرانًا.

عليَّ أن أكلم هؤلاء الفتيان؛ لأهرب من أسر الوجدان والذكريات.

ـ مرحبا بكم أيها الشبان الأفغان، من أي مدينة أنتم من كابل أو من قندهار أو هيرات أو قندوز أو مزار شريف أو كونر أو جلال آباد؟

هل أنتم من البشتون أو الطاجيك أو الأوزبك؟

ـ ما شاء الله، يبدو أنك تعرف أفغانستان، هل زرتها يومًا؟

ـ لا لا.. لا أعرفها ولكني سمعت عنها، ولكن لم تخبروني من أي مدينة أنتم؟

ـ نحن من قندهار مدينة المدارس الدينية.

كان اهتزاز الباب يغازلنا بين الفينة والأخرىٰ، وأصوات متقطعة تصل إلىٰ أسماعنا من الخارج.

كان المتكلم أصغر الثلاثة، فتىٰ أبيض تعلوه حمرة البشتون، وله عينان كحلاوان، ولحية شديدة السواد، وكان يلف رأسه بعمامة شديدة البياض.

ـ من أي بلاد العرب أنت، هل أنت من مكة؟

ـ لا.. لست من مكة وإن كان قلبي يطوف حول كعبتها، أنا من اليمن.

ـ من اليمن؟ أنت يمني؟

أخذوا يبتسمون وينظر بعضهم إلىٰ بعض بفرح، ثم مدوا أيديهم يصافحوني من جديد، وأخذ الفتىٰ يدي ووضعها بين يديه وضمها إلىٰ صدره بين ثيابه الكثيرة، ثم رفعها إلىٰ فيه ليلثمها عدة لثمات، ثم رفع إليَّ عينين لامعتين فقال:

أنا أسكن في قرية قريبة من قندهار، وقد شهدت هذه القرية الكثير من المعارك أيام الغزو الروسي لبلادنا، كنت حينها طفلًا، لا زلت أتذكر ذلك اليوم الذي وصلت فيه الاشتباكات إلىٰ أزقة قريتنا، كنت أتابع المشهد من فتحة في أعلىٰ البيت، كان هناك شاب عربي يحتمي

بمِتراسٍ قرب بيتنا، تسمَّرت عيناي عليه وهو يرمي أعداءه بوابل من الرصاص ثم يعود إلىٰ متراسه غير مبال، تمنيت حينها أن يكون لي رشاش مثل رشاشه، ومتراس مثل متراسه وأعداء مثل أعدائه. كان أبي وأمي ينزلاني من موقعي خلف الجدار، ثم أستغفلهما وأعود لمشاهدة ذلك العربي وبندقيته التي تزمجر كأنها أسد في غابة كثيرة السباع، كنت أنظر إليه والرصاص يحيط بمتراسه من كل جانب، ثم صعدت كرة أخرىٰ إلىٰ السطح فرأيته ينزف دمًا علىٰ أحجاره وقد سقطت البندقية من يده وتمددت بجانبه.

وفي صباح الغد خرجت مع أمي وأبي تحت مطر خفيف لننظر إلىٰ ما خلفته الاشتباكات، فرأيت صاحبي ممددًا هادئًا وقد تضرجت جبهته وبندقيته بدمه، فأحضرت أمي رداء كان يضعه أبي علىٰ أعلىٰ جسده من البرد فلفوا الشاب فيه، وبمساعدة بعض جيراننا حملوه إلىٰ مقبرة العرب، كان أبي وجاراي يحملانه وأمي تقودني خلفهم، تحمل وعاءً فيه قليل من الماء حتىٰ دفنوه هناك بين الكثير من القبور، فأخذت أمي ترش قبره بالماء، وكنت أتناول بكفيَّ الصغيرتين شيئًا من الماء وأضعه علىٰ قبره، لا أدري لماذا نرش قبره بالماء رغم أننا تحت المطر، لعلها عادة لم نرد أن نحرم منها ذلك الفتىٰ العربي...

أنهىٰ الفتىٰ القندهاري قصته ليثير تلك الشجون القديمة، فوجدتني

أقلد الأفغان فأنفخ في كفي لأطرد منها غبار تراب ذلك القبر الذي دُفِنَتْ فيه الكثير من أحلامنا الجميلة.

علىٰ ظهر النَّاقة

لملمت الشمس أطرافها، وألقت نظرةً حانيةً علىٰ الصحراء، وأخذت تسير ببطء متجهة إلىٰ ما وراء الوهاد، تاركة أبناءها يستعدون للإخلاد إلىٰ النوم، ولتذهب هي أيضًا تأخذ قسطًا من الراحة في أحضان الكون.

لكن القافلة لم تتوقف عن المسير، صحيح أن الشمس ذهبت لتستريح غربًا، لكن القافلة أصرَّت علىٰ المضي شمالًا.

كان (أبو عبد الرحمن) يتمايل علىٰ ناقته وقد لفَّهُ الصمت والهيبة، وعدد من رفقائه يسيرون حوله بوقار وسكينة، سرت من محيَّاهم إلىٰ الجِمال التي يركبونها.

بدأ الليل يرسل لحافه علىٰ النائمين علىٰ مناكب الأرض، والنجوم ترسل إشاراتها للسائرين المسافرين، من يدري؟ لعلها تشفق علىٰ أولئك الذين يخترقون سواد الليل، فها هي تدعوهم للاهتداء بضوئها الجميل المتراقص، كالمصباح الذي تمازحه الريح.

ترك الأصحاب الطريق لأبي عبد الرحمن، وساروا وراءه تاركيه لصمته وسكونه وهيامه وتأملاته، إذ إنهم أدركوا أنه انفصل عنهم

وأصر علىٰ المضي طوال الليل، منتشيًا بهذه الصحراء وليلها الهادئ، هل سحره جمال النجوم ورمل الصحراء في هذه الأرض البعيدة التي غابت فيها مظاهر الحياة؟ لا جبال، لا أشجار، لا أودية، لا عمران.

ليل بهيم، وسطح رملي أملس، ونجوم مسافرة، وأخرىٰ قادمة، كأنها تسابقهم السير نحو الكوفة، حتىٰ ليُخيَّل إليهم أن النجوم التي تركوها قد غادرت الحجاز وجاءت لتشاركهم السُّرىٰ.

يا إلهي كيف سيكون ليل الحجاز بلا نجوم؟!

أما أبو (عبد الرحمن) فقد انصهر في الزمان والمكان والاتجاه، كان لا يشعر بأنه علىٰ ظهر ناقته، بل حسب نفسه راكبًا أجنحة الليل الذي أخذ يتسلل إلىٰ ذاته المنتشية، فجعل نسيمه يدير عجلة ذاكرته إلىٰ الوراء، نسي من حوله، فعاد إلىٰ جبال مكة وأوديتها وأنديتها، كأنه يستنطقها علَّها تخبره بما جرىٰ، لقد كان ما حصل فوق الخيال والممكن والمعقول، كانت تقفز إلىٰ خياله الكثير من التساؤلات التي لا يجد لها، وربما وجد لها إجابات، لقد اختلط المعقول واللامعقول في ليله الصحراوي الحالك، هل هي لحظات تجلٍّ صنعها الزمان والمكان؟.

كانت جبال مكة تطل برأسها إلىٰ ذهنه وقد دبَّت فيها الحركة كناقته الهائمة بهذا الليل، فيرىٰ هناك بؤسه وضياعه، لقد كان لا يختلف كثيرًا عن شاة من قطيعه الذي يرعاه لأسياده من بني مخزوم،

انتابته قشعريرة حين مرت بخاطره (بنو مخزوم) كأنها إشارة إلىٰ لحظات ترتجف حزنًا وألمًا، شعر أنه يشم رائحة مخلَّفات الأغنام وهي تتبعثر في حظائر الماشية.

كان أصحابه يجـرّون أنفاسهم وراءه طوال الليل، وسحائب من التعب والنعاس تتغشَّاهم، حيث إنهم لم يغادروا ظهور الإبل إلا لصلاة المغرب والعشاء جمع تأخير، لم يجرؤوا أن يراجعوه حينما شعروا بأنه يحب أن يقضي ليله علىٰ ظهر ناقته، هل يحسون بما يموج في خواطره؟.

إن الحدث كبيرٌ، عصيٌ علىٰ التفسير، فَلِمَ يرهق نفسه في فلسفة وقائعه، فليعز ذلك لمشيئة الرب.

لم يكن يتصور أن يغادر حظائر بني مخزوم إلا إلىٰ القبور حيث يتاح له هناك فقط أن يرقد بجوار أسياده، هكذا كانت الحياة ستمضي كما مضت علىٰ كثير ممن سبقوه من الرعاة والضعفاء والعبيد، إنها فلسفة الواقع الذي يفرض شروطه، غير ملتفت إلىٰ مشاعر الناس واحتياجاتهم وطموحهم بل ولا إلىٰ إنسانيتهم.

أخذت الدموع تملأ عينيه حينما جرَّته الذكريات إلىٰ ذكر {أستاذه العظيم} الذي خلَّفه في المدينة، راقدًا في أحضانها.

أخذ يتمتم بكلمات يناجي بها ذاته والعَبرة تخنقه:

لأكونَنَّ وفيًا بعهدك، لقد أخرجتنا من كابوس القهر والجهالة،

لأحملنَّ عهدك إلىٰ العراق، ولأصرخنَّ به بأعلىٰ صوتي؛ لأني علىٰ يقين أن صوتي سيمتطي الريح فيصل إلىٰ أطراف الصين، وسيخترق الجبال متجهًا إلىٰ شعوب الرومان، لقد وعيت دروسك، لقد فهمت تعاليمك، آه لو كان لناقتي جناح لطارت بتعاليمك إلىٰ حيث تنتهي الثلوج، أريد أن يعلموا ما صنعتَ بنا، أريدهم أن يروا الراعي كيف أصبح معلمًا، أريد أن أخبرهم أنباء العبيد الذين أصبحوا قادة، والعُمْي الذين طلع عليهم صبح البصيرة، أريد أن أُرتِّل لهم كلمات الحياة، علَّها تذيب الأغلال التي تحيط بأعناقهم.

ـ أيها الشيخ.. أيها الشيخ، ها هو الفجر قد طلع، فهل ننزل الآن لنصلي؟ أم نسير قليلًا حتىٰ يسفر وجه الصحراء؟

كأنه لم يسمع، فمضىٰ في مناجاة ذاته:

الفجر؟ أي فجر تعني؟ قد طلع الفجر، وأضاءت الدنيا، وودَّعنا الظلام، قبل أن يرحل حبيبي.

ـ أيها الشيخ، يا أبا عبد الرحمن، يا بن مسعود...

ها هي الكوفة قد تبدَّت لنا، والناس تنتظر قدومنا، وأنوار الفجر ملأت الدنيا.

ـ انيخوا الإبل، فلنصلِّ هنا قبل أن تطلع الشمس.

يــومٌ أليــم

كعادتي أخرج من البيت بعد العصر، وأستفرغ طاقتي في اللعب مع الأطفال اللذين هم في سني أو يقاربونه، لم تكن لنا آنذاك هذه الأنواع المختلفة من الكرات، كنا نحصل علىٰ أي كرة فنلعب بها، صغيرة أو كبيرة، وحين لا نملك الكرة علينا أن نصنعها من لفائف الورق وبقايا الجلود.

لازلت أتذكر تلك الكرة التي كنت ألعب بها ذلك اليوم، وكيف أنساها وأنا ما نسيت حتىٰ لون شمس ذلك اليوم، ولا ذرات الغبار التي كانت محلقة في سمائه، ولا الأوراق التي كانت تعبث بها الريح؟

حتىٰ الأخشاب وبقايا الحطب لازلت أذكر أشكالها وأماكنها.

أنهكني التعب بعد مطاردة تلك الكرة الصغيرة، وجنحت إلىٰ الراحة والاسترخاء في جانب الشارع الترابي، وهناك قريبًا من بيت العم أحمد العولقي جلست لاهثًا، فمددت رجلي واتكأت علىٰ يدي، ورفعت وجهي نحو السماء باحثًا عن الهواء لأملأ به رئتي المرهقتين من طول اللعب وكثرة الجري.

كان الشارع ممتلئًا بالأطفال ممن هم في سني وممن هم أكبر وأصغر مني، وكانت هناك حلقة لبعض النساء في ظل جدار يتبادلن الحديث ويقتتن الكلام.

يا إلهي ما الذي جرىٰ؟

لم تكن اللحظات تسمح بالاستفسار، وجدت نفسي أمام الموت وجهًا لوجه، لم يترك لي فرصة للهرب.

انطلقت (الحراثة) إلىٰ الوراء تنتهب الأرض نهبًا وعليها عدد من الأطفال، أحاط بها الصراخ من كل مكان، حاولت النساء إنزال الأطفال من الحراثة، لكن كان الفشل حليفهن في كل محاولة، فسرعة الحراثة وجنونها وضعف النساء والخوف لم يسمح بذلك.

أفقت علىٰ الحراثة وهي متجهة نحوي بكل جنون، رأيت الأطفال بين أيدي النساء التي تحاول إنقاذهم، رأيت (محمدًا) ابن عمي وهو يعجز عن الاستمساك بحديدة الحراثة فسقط قريبًا مني، أما أنا فقد استسلمت للموت، لأن الحراثة لم تترك لي مهربًا، لا أدري لماذا تمددت أرضًا؟ هل هو الوجل أم الاستسلام أم هي عناية الله؟

وجدت نفسي تحت عجلة الحراثة الخلفية، لكن لم يمسسني منها شيء فقد توسطت بين العجلتين الخلفيتين الكبيرتين في معجزة ربانية وعناية إلهية.

لكن...

في هذه اللحظة بالذات وأنا تحت الحراثة سقط محمد تحت العجلة الخلفية التي عن يميني، كنت ممددًا علىٰ الأرض فسمعت العجلة تكسر أضلاعه وتدوس علىٰ بطنه في لحظات مرت كمرور البرق، ثم تأتي العجلات الأمامية فينجيني الله منهما، ويمران عن يميني وشمالي وأنا مستلق بينهما وبالسرعة والقوة والقسوة نفسها يمران علىٰ جسد محمد، فتسيل الدماء وتصيب ثيابي.

وبعدها تتعثر الحراثة في بعض الأحجار لتنتزع النسوة من تبقىٰ من الأطفال علىٰ ظهرها، ثم تنطلق بعيدًا ليس عليها أحد تلاحقها اللعنات حتىٰ وقعت في حفرة منعتها من الحركة، فمازالت تحفر حتىٰ وقفت.

كانت بعض النساء تظن أن الدماء تسيل من جسدي، ولكن بمجرد خروجي السريع من تحت صدر الحراثة وقفت خائفًا أنظر إلىٰ ابن عمي وهو بين يدي عجوز أدخلته إلىٰ بيت العم أحمد العولقي ليفارق الحياة بعد بضع دقائق.

علا الصراخ القرية، وتجمع الناس، وحضرت الشرطة بعد ساعة من الحدث، كان الحزن والوجوم والخوف يتغشىٰ قريتنا الصغيرة، وكانت الشمس تزحف نحو الغروب ببطيء، وخرج كل من في

القرية إلىٰ الشارع، وجاء رجال ونساء من القرىٰ المجاورة.

وكما هي العادة تجمع عدد كبير من النساء في بيتنا الكبير، نسي الناس مع ألم الموت والحزن وهول الواقعة نسوا أن هناك طفلًا خائفًا مذعورًا نجا من الموت بأعجوبة، ولأنه لم يصب بأذىٰ لم يلتفتوا إليه.

حتىٰ أمه لم تكن تظن أنه يحتاج عناية فقد ابتلعتها أكوام النساء، مع أعمال استقبال المعزيات وصراخ الباكيات.

لم أرَ أمّي، ولم أنم في غرفتنا المعتادة بين أمي وإخوتي لمدة أسبوع.

كانت أيام حزن وخوف وأحلام مزعجة، كنت آوىٰ إلىٰ فراشي بين عدد كبير من أبناء أعمامي والأطفال الذين قدموا مع أمهاتهم للعزاء، ما أن أضع رأسي علىٰ الفراش ويبدأ النوم يداعب أجفاني حتىٰ أسمع صوت العجلة وهي تدوس جسد محمد فأجلس فزعًا، ألتفت يمينًا وشمالًا وكأني أرىٰ الحراثة تركض داخل الغرفة، ومحمد يصرخ بأعلىٰ صوته طلبًا للمساعدة، وربما أستيقظ أحيانًا منتصف الليل علىٰ صوت العجلة وهي تدوس جسد الطفل المسكين، وكنت ربما أحتاج شربة ماء فيمنعني الخوف من البحث عنها في الليل المظلم.

مرت الأيام وتلاشت الحادثة رويدًا رويدًا، لكن ظلال ذلك اليوم لايزال يزورني الفينة بعد الأخرىٰ.

العجيب في الأمر أن أعمامي مصرون علىٰ أن العجلات لم تدس جسد محمد، وأنه مات بسبب ضربة من حديدة عند أذنه، أما أنا فلازلت مستمسكا بروايتي، فقد كنت أقرب شخص إليه، ورأيت العجلتين تعتلي جسده الصغير وسمعت صوت هشهشت عظامه بأذنيَّ الصغيرتين.

مُثلَّثُ الإرهاب

اختلطت الصور في مخيلته.

يتراءىٰ له وجه أمه العجوز وهي في مصلَّاها تبتهل بالدعاء له.

ووجه زوجته الحسناء وهي تودعه، وصورة ذلك الشيخ وهو يدير السواك في فمه، وصورة الجندي وهو يضربه بالسياط علىٰ رأسه و ظهره وقفاه، وحديث المحقق الذي يسأله عن أسباب نية السفر إلىٰ خارج البلاد للقتال.

وصورة ما ينعم به ذلك المحقق من حفاوة بالغة، وما يقدم له من المشروبات الباردة والساخنة في أثناء التحقيق معه.

لقد عرف المحقق كل شيء عن سيرته، فهو فقير، ويتيم، ووحيد أمه، وحديث عهد بزواج.

كيف حصل علىٰ كل هذه المعلومات؟

أخذ يسترجع بسذاجة فتىٰ مراهق أول لحظات علاقته بصديقه سعد، وما كان يمده به من السيديهات والملازم والأناشيد التي تحرضه علىٰ (الجهاد)، ولم ينس اللحظة التي أخذه فيها إلىٰ الشيخ

أبي طلال وهو يحدثهم في حديث سرِّي في بيت أحدهم، وكان جل حديثه عن صنمية العَلَم والنشيد الوطني وحدود سايكس بيكو.

أراد أن يستلقي بعد هذا التنكيل، لم يستطع الاستلقاء، فالزنزانة لا تسمح له بذلك.

آه،،،

قالها والدموع تنسكب من عينيه، والدماء تختلط بثيابه جراء التعذيب.

أراد أن يصرخ كأنه طفل مفزوع،، يا أماه.

ثم قال بصوت وديع منهك:

يا الله.. يا أمان الخائفين.. وملاذ الهاربين.. وملجأ المقهورين.

أغمض عينيه لينام وهو قاعد القرفصاء، تدفقت الأفكار علىٰ رأسه:

هل كان شيخي مصيب؟

كم حذَّرني كم نهاني!

يا بني الصبر الصبر

إياك إياك.

ثم زوجتي، كيف لو عرفت أني هنا في هذه الزنزانة أتقلب بين أنياب القهر؟

مسكينة لم يمر علىٰ عرسنا سوىٰ أربعة أشهر.
قلت لها سأذهب إلىٰ العمرة
هل سيطول انتظارها؟
وأمي آه من أمي
كيف لو علمت؟
أظنها ستموت
لقد كنت ولدها الوحيد، مات أبي وهي شابة فعزفت عن الزواج لأجلي.
كاد رأسه ينفجر
فتح عينيه
ـ أخذ يردد
أين الصبر؟
أين التضحية يا خضر؟
هكذا خاطب نفسه
تذكر أنه لم يصل العشاء
لا يدري كم هو الوقت الآن فالزنزانة مظلمة.
تلمس الجدار لعله يجد عليه ذرات من رمل يتيَمَّمُ بها.
لماذا لا يسمحون لي بالوضوء والصلاة، إني لا أستطيع القيام ولا

الركوع ولا السجود.
أقبل علىٰ صلاته، شعر بشيء من الراحة.
ثم راح في سبات عميق.

الـرَّاحِـلـون

أراه يسير خلف أغنامه وفي يده عصا يتوكأ عليها، كان ذلك يخيفنا منه كثيرًا..

كان يرعىٰ أغنام أعمامه في أودية قريتي هو وعدد من البدو الرحل الذين معه، اللعاب يتساقط من بين شفتيه فيمسحه بظهر كفه.

يمشي مهرولًا والحصىٰ يتطاير من تحت حذائه الممزق.

يطوي علىٰ رأسه شالًا مهترئًا متسخًا، ويحمل في إبطه زمزمية للماء، غطاؤها من خشب، صنعه بسكينته المعكوفة في خاصرته، تختلط كلماته بضحكاته برذاذه المتطاير، فيخيفك وجهه الغضوب الضحوك.

فلا تدري أهو يصرخ أم يضحك.

أحببته وأشفقت عليه في الوقت الذي كنت أخاف منه.

به عشت تجربة اجتماع الحب والوجل، الإشفاق والألم في لحظة واحدة، وكأنها مزيج من التناقضات التي تشبه تناقضات وجهه المشجوج المغبرّ والذي عجزت كل هذه التشوهات أن تخفي جمالًا في محياه مازال يتساقط منذ طفولته بعوامل فقد أبويه وإهمال أعمامه وظلمهم.

كان يلقاني في نحر الظهيرة وقد أظللت أغنامي تحت شجرة كبيرة، فيعرِّج عليَّ مسلّمًا سلامًا تتساقط بعض حروفه، وتتطاير الأخرىٰ مع رذاذه ليناولني زمزميته كي أشرب منها ما يطفئ لهيب الصيف الذي يتوقد في حلقومي، إلا أني كنت أعتذر عن الشرب من مائه، لا أدري هل هو تقزُّزٌ من الشرب وراءه، أم خوف من العصا التي أرىٰ أصابعه تقبضها بقوة فألمح خاتمه الحديدي فيزيد العصا قسوة إلىٰ قسوتها؟.

ثم يتركني فينطلق خلف أغنامه يتهادىٰ كما يتهادىٰ الجمل، فتتبعه نظرات الإشفاق من قلب ذلك الطفل الذي يمتلك فيضًا من العواطف تفوق سنَّهُ بمراحل طويلة. وكأني أعلم أن ذلك الرجل فقد أمه يوم جاء إلىٰ الدنيا فحرم من عاطفتها فتحملتُ عنها الكثير من المشاعر التي أبت أن تلج معها القبر، فأخذت تسافر في الأودية كي تأوي إلىٰ قلب ذلك الطفل الراعي.

لا أدري لماذا حزنت حين قيل لي أنهم رحلوا إلىٰ مكان بعيد.

خرجت أسوق أغنامي أبحث عنه في ظلال الأشجار وفي السهول والوديان وأرسل نظري إلىٰ شعف الجبال لعلي أسمع غناءه الذي لا أفهم منه إلا همهمات حزينة تشبه هديل الحمام.

ذهبت إلىٰ مساكنهم فلم أجد سوىٰ بقايا الرماد بين الأثافي،

وأحجار مرصوصة، وبقايا مخلفات الأغنام وآثار الإبل، ومزع من القماش البالي وأحذية ممزقة، وأواني مكسرة، وحبال مقطعة، وأشواك مبعثرة، وحفر صغيرة، وزير كبير، في ظل شجرة صغيرة.

رأيت تلك الأطلال تنطق بلسان حزين، وتغني لحنًا مكتومًا وكأنه مزمار من مزامير السدنة في حفلات موالد الأولياء.

ياه كم في هذه الأطلال من أحاديث: أحاديث الحب والغرام، أحاديث الفرح والسعادة، أحاديث الظلم والقهر، أنَّات ذلك المسكين وزفرات صدره المحترق، أحاديث السُّمَّار في ليالي الشتاء وهم مجتمعون حول موقد نار تلعب بها الريح، ضحكات السمار في ليالي الصيف والقمر يسير خجلًا يسابق الشمس ليختفي خلف الجبال قبل أن تحرقه شظايا لهيبها.

بعد عام من رحيلهم ترامىٰ إلىٰ أسماعنا انتحار الراعي المسكين.

لقد كانت حادثة انتحاره علىٰ قلبي أليمة.

جاءنا الخبر اعتباطًا، نقل دون اهتمام، فلم يتمادىٰ السمار في ذلك الحديث العابر.

أما أنا فقد وقف قلبي علىٰ قدميه وانتحب باكيًا، وشعر أن الانتحار خيار التجأ إليه المسكين ليهرب من قهر عجزت قواه عن احتماله بعد أن أنهكها اليتم والألم والسخرية والترحال.

سَيِّدنا الـخَـضِـر

منذ أن قدمتُ القاهرة للعلاج وأحالني الدكتور (الشيوي) إلىٰ مركز العلاج الطبيعي في ميدان الجيزة وأنا أسمع اسم الدكتور حسن يجلجل في كل غرف المركز وصالاته وردهاته، وكأنه الأيقونة التي تُحرِّك المركز كله، وفهمت من خلال حرص المرضىٰ علىٰ تلقي العلاج من يديه أنه متمكن من عمله، خبير بمهنته، متضلع في علمه. وخلال الشهر الماضي لم تقع عيني قط عليه رغم أن أذني تكاد تلتقط حروف اسمه كل عشر دقائق، والمركز ليس واسعًا بحيث يغيب عليَّ شخصه في زحام المرضىٰ وردهات المركز.

سألت السكرتير منذ أيام:

من هو الدكتور حسن الذي أسمع اسمه حيثما اتجهت؟

قال بكل برودة: هو قدامك صاحب النظارات، وبحكم فضولي اطلعت تقريبًا علىٰ أغلب الأماكن، فما وجدت صاحب نظارات غير الذي أعرفهم.

حتىٰ في اللحظة التي أسمع فيها من يناديه أبحث عنه ولا أجده.

هل الدكتور حسن هذا يشبه خرافة سيدنا الخضر الذي يظهر

فجأة ليقوم بعملية إنقاذ ثم يختفي فجأة كما ظهر؟

كان موعد بدء علاجي الليلة الساعة السابعة مساء، وبسبب الزحام الكبير وتعدد الحالات لم أدخل غرفة العلاج إلا الساعة التاسعة والنصف، لكن للأسف الدكتور الذي يعالجني كل يوم رجع إلىٰ بيته بسبب إرهاقه الشديد كما أنه أيضًا مصاب بالرمد الربيعي.

فقال لي السكرتير: ادخل الغرفة رقم ثلاثة وسوف يعالجك الليلة الدكتور حسن.

دخلت الغرفة رقم ثلاثة وكالعادة استلقيت علىٰ السرير، ولم يأتني الدكتور حسن بل جاء الدكتور علاء مدير المركز، دفع الباب وسحب عمود الأشعة وسلَّط الأشعة تحت الحمراء علىٰ ظهري وانصرف مستعجلًا كما دخل، فهمت أن هناك زحمة الليلة اضطرت المدير نفسه لمباشرة العلاج للمرضىٰ، وفهمت أيضًا أن المدير وضع الأشعة علىٰ عمودي الفقري ليلهيني وينشغل هو بمرضىٰ آخرين في صالة الرياضة، فاستغليت وجودي تحت الأشعة لأواصل قراءة كتاب (يوميات نائب في الأرياف)، ومعي بعض الكتب الخفيفة جعلتها للعيادة سواء في صالة الانتظار أو في سرير الأشعة، طال انتظاري تحت الأشعة أكثر من الوقت المفترض، وشغلني توفيق الحكيم في بحثه عن ريم وعصفور، وكان يسرد لي

قصة المرأة التي أخرجها اللحَّاد من قبرها ليجري تشريحها، فما راعني إلا السكرتير يقوم بتنظيف الجدران والأبواب والأسرة إيذانًا بنهاية العمل، فصرخت في وجهه: أين الدكتور حسن؟

قال بكل لطف وحلم، وابتسامة تنتشر في محياه: (ما تزعلش يا باشا) الدكتور في صالة الرياضة مع مريض.

لم أمهله حتىٰ يشرح لي كيف انصرف المرضىٰ وتأخر الوقت ولم يبق غيري وغير مريض واحد في الصالة الرياضية، فقفزت من السرير واتجهت إلىٰ الصالة الرياضية بحثًا عن سيدنا الخضر الذي سأراه الليلة حقًّا وليس خرافة، تجاوزت ممرًّا ضيقًا إلىٰ الصالة الرياضية فلم أجد غير الدكتور علاء ومريض معه يجري له بعض التمارين، وانتابتني غضبة مضرية بهذا الاستهزاء بي، ها هو الدكتور حسن رجع إلىٰ بيته كما رجع قبله الدكتور الآخر، فوقفت علىٰ عتبة الباب ألتفت يمنة ويسرة لعلي أرىٰ الدكتور حسن صاحب النظارة، قبل أن أفرغ غضبي علىٰ المدير، أجلْتُ بصري خلف الأجهزة وخلف الباب لكن لا وجود للدكتور حسن، فوجهت سؤالي غاضبًا ممتعضًا للمدير العام.

أين الدكتور حسن؟

فابتسم في وجهي ابتسامة خففت موجات الغضب المترددة

وقال: نعم. أنا الدكتور حسن، لحظة وسآتيك، دعني أكمل بعض الحركات البسيطة مع الباشا.

إذن هذا هو الدكتور حسن الذي أراه كل ليلة وكنت أظنه الدكتور علاء. والذي أوقعني في هذا الخلط هو الدكتور الشيوي الذي أحالني إلىٰ هذا المركز، حيث قال: سأحيلك علىٰ الدكتور علاء وسيعاينك ويرتب لك العلاج الطبيعي، فلما جئت إلىٰ المركز أدخلت غرفة المعاينة وكان أمامي الدكتور حسن الذي ظننته الدكتور علاء.

عدت إلىٰ سريري وفي طريقي قلت للسكرتير: هذا هو الدكتور حسن؟

قال: نعم.

قلت: والدكتور علاء؟

قال: الدكتور علاء يجيء الصباح، والدكتور حسن يجيء العصر، يتناوبان علىٰ المركز.

ولم أكمل كلماتي إلا والدكتور حسن واقف عند السرير يأمرني بأخذ الوضعية المناسبة للعلاج .

البداية

في ليلة من ليالي شباط الهادئة وبعد شهر مع المرض، وبعد مرور ثمانية أشهر ونصف علىٰ حملها، تصرخ الأم ويعلو صراخها فيستيقظ بعض من في البيت، ظانين أن المرض قد اشتدت وطأته علىٰ الأم الحامل، ولم يدركوا أنها آلام المخاض، وأن شدة المرض قد عجلت في إنزال الجنين قبل أوانه.

لم يَطلَّ الفجر بخيوطه إلا والأم تضع في حجرها وليدها، الذي لم يصرخ حين خروجه إلىٰ الدنيا، ولم يفتح عينيه، لا تدري أهو استخفافًا بهذه الحياة التي دفعت به إلىٰ أتونها قبل أن يستكمل شهوره التسعة في بطنها كبقية الأطفال، أم أن وطأة المرض الذي كانت تعاني منه الأم قد وصلت آثاره إلىٰ الجنين المسكين؟.

ـ قالت الجدة: أهو ميت، إنه لا يصرخ ولم يفتح عينيه؟

ـ قالت الأم بصوت ضعيف وهي تتأوه:

ـ لا، بل هو حي، إنه يتنفس ويلقم ثديه.

كانت الجدة تود لو أنه كان ميتًّا، إنه الابن الثاني لبكرها، كانت تحب أخاه الأكبر، ويوم علمت أن أمه حامل أعلنت احتجاجها

ورفعت صوتها:

ـ هل ستفطمين عليًّا وهو لم يذق اللبن بعد، من أجل هذا الملعون الذي في بطنك؟

ـ إنها إرادة الله يا عمة، وليس لنا إلا التسليم لأمره.

كانت الجدة تنظر إلىٰ هذا الوليد الأعمىٰ الأبكم نظرة تخوّف، وتود لو يرحل عن الحياة، إن حبها لأخيه أعمىٰ بصرها وغطىٰ علىٰ قلبها.

أما الأم فهي مشغولة بمرضها والذي تضاعف مع آلام الولادة.

مع شروق الشمس تناولت الأم النفساء ما قدم لها من القهوة والتمر، وأصبح أهل البيت الكبير يتحدثون عن مولود أعمىٰ أبكم.

كم يشفقون عليه وعلىٰ أمه المريضة.

لم يكن أبوه موجودًا بل كان في مهمة عسكرية في مدينة العبر بمحافظة حضرموت، أما جده فهو في عدن استعدادًا للسفر إلىٰ الحج، كان عمه العشريني هو أكبر من في البيت في ذلك اليوم، فسافر إلىٰ عدن ليدرك أباه قبل أن يسافر، وفي عدن أخبر الجد أنه ولد لأخيه ولد قاصر، لم يطلق أي صرخة، ولا يريد أن يفتح عينيه ليرىٰ من حوله.

ـ الحمد لله علىٰ أقداره، علىٰ العموم قم بابني بالواجب واختنوه

إن سلم من الموت.

المهم إن أمه بخير؟

ـ الحمد لله، هي علىٰ ما يرام وفي تحسن مستمر، لعل مرضها كان بسبب الحمل.

بعد مرور خمسة عشر يومًا حصلت المفاجأة، الوليد يستهل صارخًا ويعلن للأهل أنه سيشق طريقة إلىٰ الحياة، التفتت الأم إلىٰ وليدها الصارخ، أخذته إلىٰ حجرها تودّ لو يصرخ ويصرخ لكونها ترىٰ ذلك إعلان حياته ورفضًا للموت، والمفاجأة الأخرىٰ أن (القاصر) كما تسميه الجدة، فتح عينيه وأخذ يقلب بصره في وجه أمه وفي سقف الغرفة الكبيرة، كان أبيض اللون مُشرّب بحمرة، أسود الشعر، واسع العينين، عريض الجبهة، كثير الصراخ، دائم الحركة، كل يوم يمر عليه يزداد قوة وحيوية.

رضع من أمه حولين كاملين، وهو الوحيد بين إخوانه الذكور التسعة الذي رضع هذه المدة، وكانت أمه ترد عافيته وقوة بدنه وحيويته إلىٰ هذا السبب، وكانت بعد ذلك تقول له: أنت الوحيد الذي شبع من لبني، لابد أن تكون أبرَّ إخوانك بي.

حين بلغ ثلاث سنوات فقد جده الحنون الذي لا يذكر منه إلا طيفًا عابرًا، لقد أُدخل جده السجن في ظل جنون الشيوعية الحمراء،

وكذلك سجن عمه غير الشقيق والذي يكبر أباه بسنوات، وبعد مرور عام كامل في السجن أعدم عمه، وأُخرِج جده من السجن مريضًا، ثم لم يلبث من شدة مرضه وتعذيبه في السجن أن مات.

كان جده يحبه حبًّا جمًّا كما أخبروه بعد ذلك، كان كثيرًا ما يضعه في حجره، وربما بال علىٰ ثيابه فتحتج الجدة ويبتسم الجد.

ـ أنزله من حجرك لقد بال في ثيابك.

ـ دعيه يبول في ثيابي، فمن لم يَبُلْ أبناؤه في ثيابه بال الناس علىٰ رأسه.

لعلها من فلسفة الواقع الذي عاشه الجد.

تضحك الجدة مستهزئة ثم تقول: أبعد عنك هذا القاصر، انظر إلىٰ رأسه الكبيرة.

ـ رأسه كبيرة لأن فيها دماغًا كبيرًا سيكون ابني هذا عاقلًا ذكيًا.

كان متعلِّقًا بجده بشدة، ولم يغضب منه إلا مرة واحدة، حينما جاء فريق التطعيم فأمسك به الجد، والطبيب يغرز الحقنة في كتفه الأيسر وهو يصرخ بصوته القوي والجد لا يرحمه، ولقد تركت هذه الحقنة في كتفه علامة، كلما رآها تذكر جده.

كانت الجدة وأمها التي تزورها بين الفينة والأخرىٰ يحبان أخاه حبًّا جمًّا، ولم يلتفتا إلىٰ الطفل المسكين، كان كثيرًا ما ينظر إليهما

وهما يحتضنان أخاه ويقبلانه ويتبادلان حمله وهو يراقب المشهد دون أن يحظىٰ بلفتة منهما، لا يزال يتذكر وجه أم جدته، كانت بيضاء جميلة، عظيمة الأنف، واسعة العينين، كثيفة الرموش، عريضة الجبهة، دائرية الوجه، جهورية الصوت، قوية مهابة تشبه صور التماثيل التي رآها فيما بعد في كتب التاريخ.

لقد كانتا تجودان علىٰ أخيه بالخبز والتمر والبسكويت والحلوىٰ، ولو سوَّلت له نفسه الاقتراب منهما فمصيره الضرب والنهر والتقريع، لكنه لا ييأس، كان يعلم أن أخاه بحكم ضعف بدنه لن يقوىٰ علىٰ التهام كل ما يقدّم له، وأن ما يتناثر من هذه العطايا علىٰ الأرض هو أكثر مما يأكله أخوه، فينتظر حتىٰ تقوم الجدَّات ليلتهم ما خلَّفه أخوه.

الفهرس

إهداء..	٣
تقديم	٥
شجرة أم مازن	٩
آمال	٢٣
شارع الفتاة فردوس	٣١
ليلة الزين	٤١
أبي الطِّفلُ	٥٣
كريستيانا الفاتنة	٥٧
بالخطأ	٦٥
دموع الذكريات	٧١
الخطاب المختبئ	٧٧

وَحْيُ العَقَبَة	٨٣
مُستحيل ممكن	٩١
سنوات الضياع	٩٥
ماء الورد	١٠١
الطفلُ القَنْدَهاري	١٠٧
علىٰ ظهر النَّاقة	١١٣
يومٌ أليم	١١٧
مُثلَّثُ الإرهاب	١٢٣
الرَّاحلون	١٢٧
سَيِّدنا الخَضِر	١٣١
البداية	١٣٥

ناصر الوليدي

ناصر محمد سالم علي الوليدي

كاتب وقاص يمني.

من مواليد عام١٩٧٢م في قرية منصب إحدىٰ قرىٰ منطقة أورمة التابعة لمديرية مودية محافظة أبين .

تلقىٰ تعليمه الابتدائي في مدرسة أورمة حتىٰ أتم سنواتها الثماني بتفوق، لينتقل بعدها لمواصلة دراسته الثانوية في ثانوية جواس في مدينة مودية عاصمة المديرية.

حصل علىٰ البكلاريوس من كلية التربية جامعة صنعاء،ليعين بعد تخرجه مدرسًا في نفس المدرسة التي درس فيها مرحلة الابتدائية ولينتقل بعدها للعمل موجهًا فنيًا في مكتب التربية والتعليم محافظة أبين.

يقيم حاليا في مدينة عدن وفيها يمارس أنشطته الأدبية والثقافية والعلمية.

ينشر كتاباته في الصحف والمجلات اليمنية والعربية وله بعض الأبحاث في مواضيع أدبية وعلمية وفكرية.

كما أن له عددا من الكتب منها (كريستيانا الفاتنة) التي بين أيدينا.

وأخرىٰ جاهزة للطباعة وهي :
(أشواق مكة - بين الأنهار الخمسة - ليالي القاهرة).

مؤسسة روائع للثقافة والفنون والنشر